نعيم عبد مهلهل

صفحة الحلاج في الفيس بوك

Telegram:@mbooks90

رواية

نينوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكاتب / نصيم عبد مهلهل - العراق - مقيم في ألمانيا

- **جائزة الرواية العربية في تونس / 2021عن روايته جنود حروب كوكب الشرق.**

- **جائزة الطيب صالح العالمية للكتابة الأدبية / الجائزة الأولى / فرع الرواية/ عام 2021.**

- **القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب / فرع الآداب / 2020.**

- **جائزة محمد جنداري للقصة القصيرة / الجائزة الأولى / نيسان 2018.**

- حائز على جائزة القصة القصيرة في مسابقة اتحاد كتاب العرب/ دمشق عن قصته (تفاحة دلمون) عام 2007.

- حاز على الجائزة الثانية في مجال الرواية عن روايته (جنكيز خان) في مسابقة مجلة دبي الإبداعية الكبرى/ دار الصدى للصحافة والأعلام دبي: 2007.

- حائز على جائزة العنقاء الذهبية في المجال القصصي عام 2007 التي يقدمها بيت القصة.

- حائز على جائزة الدولة العراقية في الرواية 2002.

- حائز على الجائزة الأولى في القصة بمسابقة الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق عن قصة (كاهنة ديوان الوزارة) 1995.

- حائز على الجائزة الأولى في القصة لمسابقة اتحاد أدباء وكتاب ذي قار عام 1994 عن قصته (دموع حمزاتوف).

- حائز على جائزة القصة / المرتبة الأولى في مسابقة مجلة المرأة عام 1990 عن قصة (فتاة الاستعلامات).

- يكتب القصة والنقد الأدبي والشعر والمقالة السياسية ومهتم بالديانات القديمة والميثولوجيا السومرية وبيئة الأهوار وتواريخها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكرهُ من العلماءِ تكفيرَ الحلاج،

ومن فهمَ مقاصده فهمَ مقصديْ.

أبو الحسن الشاذلي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الفصل الأول

الزنج والجواري

بعض الشعوب تعتقد أنّ الآلهة تعيش في النبيذ؛ ولكنّ الصوفيين يعتقدون أنّ الآلهة تعيش في الوجدان عندما يدركه العشق لبهجة النور الذي يراهُ ولا يراه، وفي الحالتين الكثير منهم يعتقد أنّ ثمالة الروح أجود أنواع النبيذ.

Telegram:@mbooks90

من أوراقي القديمة

في مساءٍ بعيد، حيث كنتُ أعيشُ أجيراً عند متعهد لبيع الجواري بأجرٍ شهري مقداره دينار عباسيٌ واحد، وكان ربُّ العمل الذي اسمه (أعطيل)، وأظنُّ أنه تصغير لكلمة (عاطل)، وليس لها علاقة باسم سيظهر بعد مئات الأعوام بطلاً في ما يسمونه المسرحية، وهو تمثيل لحكاية يكتبها شخصٌ ما ويجسّدها الممثلون للعالم بأسلوبِ المحاكاة والحركة وليس بأسلوب القراءة.

لا يستخدمُ أهلُ بغداد حرف الألف بهمزته المكسورة لتصغير الاسم، وكذلك الآتون من جنوب بغداد، وخرائب بابل وأرض واسط، وجنوباً من بطائح الماء والبساتين والقصب وحتى البصرة.

وكان (أعطيل) من أهل البصرة يمتهنُ تلك المهنة عندما ينتظرُ هو وأبوه السفنَ القادمة من المدن البعيدة، وأغلبها من الهند والصين وبلدان يقال لها: الفلبين وتايلند واليابان، حيث وجوه نسائها مدوّرة، وعيونهن صغيرة؛ فيها نعاس لم يألفه أهل البصرة، وأغلبهن بنات الجزر التي أول ما وصلت إليها كانت السفن التي يقودها السندباد البحري، وكان صديقاً لأبي (أعطيل)؛ إذ تعامل معه في تلك المهنة، حيث يشتري منه الجواري، بينما نضفُهنّ يبيعهن لوالي بغداد، والنصف الآخر لتجار البصرة، وواحدة له يختارها من كلّ صفقة شراء. كان أعطيل نتاجاً لواحد من هذه الجاريات، وكانت من بلد اسمه مدغشقر.

وقد شفعت مدغشقر لرب عملي، عندما داهم الزنج ولاية البصرة عام (270 - 255هـ/ 869 883 -م) التي تمركزت حول مدينة البصرة، جنوب العراق اليوم، وامتدت لأكثر من 14 عاماً، قبل أن تنجح الدولة العباسية في هزيمتها.

وكان الزنج قد جمعوا التجار وأصحاب الحوانيت، ومن قتلوا منهم، أو صادروا أملاكه، ومنهم من أرادوا منه جزية لحريته، وقد أثبت أعطيل لهم، بعد أن ورث الدكان من أبيه، بأنه من أصل إفريقي، وكي يثبت لهم أتى بوالدته، وكانت عجوزاً، وتكلمت من كان من الزنج من أهل مدغشقر بلغتهم المحلية، فعفوا عنه؛ ولكنهم حرّموا عليه بيع الجواري الإفريقيات.

كسدت تجارة الجواري في زمن الزنج، وانقطع مجيء السفن من البلاد البعيدة، وما تبقى من جوارٍ صودرَ من قبل صاحب الزنج، إذ أخذ الشقراوات إلى ليل شهوته وعقد على الزنجيات زوجاتٍ حتى قيل: إنه عقد على ثمانين زنجية، وأغلبهن ليس لديهن ديانة، فكان يخترع مفردات لتلك الزيجة بمساعدة مترجمين يعرفون لغات كلّ واحدة، ومتى شبع من واحدة أهداها للترجمان، وقبل أن يُهزمَ في معاركه من جيش الخلافة وأحسّ بأنّ سيف الخليفة اقترب من عنقه قتل بيديه كلّ تلك الجواري الزنجيات.

وكلّ هذا وصاحب الزنج علي بن محمد بن عبد الرحيم الورزنيني العلوي ليس زنجياً؛ بل أراد من ذلك إفهام أنصاره من الزنوج أنه مع قضيتهم روحاً وجسداً.

فقالوا له: نم معهن، ولكن بعقد حتى لو كان كلمة.

لم تطب الحياة إلى أعطيل في البصرة، وجواريه أخذت وسلبت منه مجاناً، وكان يُعاب عليه أن نصفه من الزّنج، ولم ينتمِ إلى ثورتهم، حتى اليوم الذي قرّر فيه الهجرة إلى بغداد بعدما أخبره أحد الزنوج أنّ عليه أن يلتحقَ بجند قائد الزّنج ويذهب إلى جهة واسط للتصدي للجيش العباسي الذي يقوده الأمير الموفق بالله أبو أحمد بن المتوكل أخو الخليفة المعتمد على الله.

الفصل الثاني

بغداد وبضاعة أعطيل

في ليلةٍ ظلماء دهماء حملَ أعطيل ما تيسرَ له من أغراض بيته ومعه جارية أرمنية وَلِع بها وخبأها في صندوقٍ من الخشب كلما داهم البيت جنود الزنج بحثاً عما تبقى عنده من الجواري الزنجيات، ومع الجارية التي اسمها قشتمان كانت أمه، وبعد منتصف الليل اتجه إلى جهة بطائح أور عبر طريق صحراوي، ثم إلى الكوفة وبغداد، وكان طريقاً شاقاً وعسيراً تطلب منه أن يخفي ملامحه نصف الزنجية كي لا يتعرّض للاعتقال، ويُحسب على أنه من جماعة صاحب الزنج، وأخبر قهرمان أن تقول: إنها زوجته، وإنه تاجر بصري، أما الأم فلم يقل عنها أمه؛ بل كانت جارية لأبيه، أخذ منها العمر عتياً، واعتنى بها إكراماً لذكرى والده ووصيته، لكنّ طريق النجاة كان سهلاً، وصلَ إلى بغداد بعد يومين من تحرّك جيش الموفق إلى جهة واسط ليلتقي بصاحب الجند وجيشه فيقتله هناك.

كانت تلك قصة أعطيل، نزل حيناً من ضمن الذين هربوا من البصرة، ولم يذهب إلى مخيم إيواء البصريين الذي أقامته الخلافة في أحد البساتين جنوب بغداد، وقد منحهم الخليفة الأمان لحين هزيمة الزنج وإعادتهم، وأعطى لكلّ بيت يومياً ثلاثة أرغفة لكلّ فرد ودرهماً وقصعة عصيد. وفي المناسبات الدينية كان يعطيهم قنطاراً من التمر وصحنَ فاكهة وجرة لبن.

لم يستطبْ أعطيل مكانَ الإيواء، وكانت لديه دنانير تكفي لترتيب بيت والبدء بحياة جديدة، فجاور مؤجراً لبيت صغير عرفه فيه الناس أنه بصري، وقد سلبت تجارته من قبل الزنج، واستعان بوالدي الذي يعمل حمّالاً في خان شهبندر التجار ليقدّمه إليه ويعرض خبرته في انتقاء الجواري وبيعهن، فأخبره الشهبندر أن تلك المهنة لا تعنيه؛ لأنّ بيع البشر وشراءهم حرامٌ متبعاً قول الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!»؛ فكان رد أعطيل أن هذه مهنته، ويعرف أنّ كثيراً من العلماء والولاة والوجهاء والخليفة ووزرائه يمتلكون الجواري، فردّ عليه شهبندر التجار: إنه ليس مثلهم، ونصحه بأن يذهب ليشتري له تكية في السوق تسمى تكية الجواري، فهناك تباع من يؤتى بهن إلى بغداد مع القوافل القادمة من الشام وخوارزم وبلاد فارس ومصر وغيرها من البلدان.

فاستعان بأبي، وأبي حين رأى الحالَ يسيرةً لديه، وكنتُ وقتها جليساً عند معلم للغة والقرآن، طلب منه أن يشغلني عنده صانعاً.

وافق الرجل وقال: الجواري يتطلب يومهن الوقوف لساعات وهنّ ينتظرن الشاري، ويعطشن كثيراً، وكنت أحتاج إلى من يسقيهن، وأفضّل الصبيان على الشبان؛ لأنّ غرائزهم لم تنضج بعد.

كنت في العاشرة من عمري حين بدأت العمل مع أعطيل، ولأول مرّة في حياتي يطلّ علي وجه امرأة شقراء، كانت هي جاريته الأرمنية التي ما إن وصل إلى بغداد حتى عقد عليها زواجاً بعد أن خيرها بين أن تعود جاريةً ويبيعها كما اشتراها، أو تتزوجه على أن تغيّر دينها وتصبح مسلمة، فقالت له وقتها: خذني إلى شيخ لعقد القران، فأنا تعلقت بصوت أمك وهي تصلي.

يوم بدأتُ عملي مع بائع الجواري، لم يكن لديه جارية واحدة، واستغل انتظار أول قافلة تجيء من جهة الموصل، حيث ينتظر عشرين جارية من جهة بلاد الترك، طلب مني أنْ أعلّمه القراءة والكتابة، وقد علمته، فكان يأخذ الورقة ويكتب عليها مقدّمةً مقترحة عرضَ جارية للبيع حتى يجملها ويرغب الناس بها، وحين أخبرته أن معلمي أخبرني أنّ اللغة هي لتعلم فروض الدين وكتابتها، قال لي: إنه عرف من أبيه، وأبوه عرف من جاريات حضرميات يحسنّ القراءة والكتابة، بحرفها الحضرمي واليمني والحجازي، أنّ اللغة تشمل لغة التدين ولغة الشعر ولغة الهوى، والمناداة المشجعة لبيع السلعة البائرة، عدا الجواري فمن تبور منهن لا تُباع؛ بل تذهب لتخدم في المطابخ.

أتذكرّ مراحل تعلم أعطيل للقراءة والكتابة وتحمّسه لذلك يوم وصلَت أول شحنة للجواري، وأغلبهن من بنات الترك وما يطلق عليهن الشركسيات، وهن قادمات من جهة مدائن خوارزم وما وراء البحر، وكن شقراوات، طويلاتٍ نحيفات، يحسن الابتسامة بخجلها والنظرة بمعناها، بينما كانت الجواري التركيات بيضاً بأجسام ممتلئة، وتواقات إلى الضرب على العود، وقد فحصهنّ أعطيل، إذ راح ينظر إلى الأسنان أولاً، وقال لي مرّة: اكتب عني: إنّ تحت سنّ كلّ جارية يختبئ جنّ، فإنْ ابتسمت تراقص بين شفتيها ليغري الناظر إليها، فيشتريها بأي سعر، وإنْ حزنت، حزن الجني ومنح ناظرها رغبةً في البكاء، وأيضاً سيشتريها بأي سعر.

وكان يحدّثني عن رغبته بوجبة من النساء السود اللائي لم أرهن في حياتي، وأخبرني أنّ ولاة البصرة وتجارها هم من يرغبون بالجواري السود؛ لأنّ ضوء الشمس يلمع في أنوثتهن، وأنّ السوداء إن نامت على سرير ترفض الغطاء وتريد لنار الغرام أن تبقى مكشوفة، ولا يطفئها إلاّ قناعتها بأنها امتلأت من الرّجل.

لاحقاً عرفتُ أن ما يسكن الجواري الإفريقيات من هذا الهاجس ما يسمى (الشبق) الذي عرفته من أعطيل ماذا يعنيه وهو يقول لي: لم تزل صبياً؛ لكن في عينيك شهوة شاب، وهذا العالم الذي

ابتدأت نظراتك منه، وأقصد تجارة الجواري ستبكر عندك ذكورتك وفحولتك، ولهذا أرى في عينيك سؤالاً عن الشبق.

أجبته مرتجفاً وخجولاً: أريد أن أعرف.

قال: لأنّ لك من المكاتيب علمَ الكلام وفهمَه، وحتى لو كنت في بداياته، فإني سأروي لك عن الشبق شيئاً، وما لم تفهمه اسأل صديقاً أو معرفة لك في علم تفسير الكلام، فإنني ضعيف في التدوين واعٍ لسماع وتفسير ما يقال، وخصوصاً في عالم الجواري وطبائعهن، وما عرفت عن الشبق يا بني:

يروى أنه كان في عهد هارون الرّشيد رجل اسمه الجعيد، كان مولعاً بامرأة، وكان كلما حاول التقرب منها سمعها تنشد:

بين الجبال رأيت خيمة شيدت

في الجو يظهر طولها بين الورى

وخَلَتْ من الوتد الذي في وسطها

فبقت كمثل الدلو ليس له عرى

مرخيّة الأطناب حتى وسطها

وقعتها فعل النحاس مقزدرا

عصيَ فهم هذه الأبيات على الجعيد، وعلى كثير من الحكماء الذين حاول استفسارهم عن معناها، حتى التقى في بغداد بأبي نواس الذي استطاع تحليل مضامين هذه الأبيات وشرحها للجعيد، فقال: بين الجبال: تعني الأفخاذ، الخيمة: هي كناية عن الفرج، خلت من الوتد؛ أي ليس لها زوج، مثل الدلو هو تشبيه، إذ إنّ الدلو لا فائدة فيه دون معلاق، وقاعتها مثل النحاس مقزدراً؛ أي أنها شبهت نفسها بالنحاسة المقزدرة؛ إذا صنع فيها ثريداً فلا يستقيم إلاّ بمدلك كامل ومشابعة ويدين ورجلين، فبذلك يطيب بخلاف المغرفة فإنها لا تطيبه.

عقّب أعطيل على تلك القصة: إنّ من يقصد في هذه القصة حتماً جارية إفريقية، وأغلب الظنّ أنها من مدغشقر؛ لأنّ أمي -أطال الله في عمرها- كانت تقول: إننا في مدغشقر طباعنا هكذا، ولذلك اختارني والدك بين مئات من يبيع ويشتري بهن، وكانت من بينهن واحدة هندية اسمها عبق البخور أغْوته بألف هزّة كتف ورمش وهمسة، فلم يقترب منها واختارني أنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استهواني هذا العالم، والرّجل كان كريماً في فتح مغاليقَ كثيرة تهمُّ مهنة بيع الجواري، وكنت أشعرُ بالسعادة؛ لأني أشعر بأني أمتلك موهبة إدراك الحرف والحفظ والسماع، وأني سأتعلم اللغات الأخرى من اللائي يجلبهن أعطيل، وستتغير في نظرتي ما تعودت عليه من وجوه بنات بغداد اللائي في سني وأكبر قليلاً.

وخيرُ وصف ما قرأته لاحقاً عند وزّاق في شارع المتنبي في الأزمنة التي عشت حداثتها لاحقاً، عندما كانت أمريكا تحتلُّ العراق وأدخلت إلى بغداد العولمة والدبابة، والكتاب كان عن أسماء الملابس عند العرب لمستشرق هولندي اسمهُ ريهان دوزي.

كان يصفُ نساء بغداد فيقول: «إنَّ النساء حين ينطلقن خارج دورهن يضعن على رؤوسهن وعلى أجسادهن لباساً من القماش الأبيض يغطيهن تغطية شاملة، بحيث لا يدع لهن شيئاً يفلت من هذه الظلمة سوى عين واحدة، تستطيع أن تهدي كلَّ امرأة إلى طريقها».

ومن متعة ما قرأت، ولم يتسنَّ لرب عملي أعطيل أن يقرأه؛ لأنه لم يكن مطبوعاً في زمنه، بينما بقيت أنا روحاً تتنقلُ بين العصور لأكون شاهداً على جمالية زمن الجواري ومقارنتهن بجواري زمن العولمة هذا.

لكني الآن أعودُ إلى زمني لأتحدث بالتفصيل مقارنةً ما كنتُ أراه في ملبس الصبيات ونساء شارعنا، وما كن يرتدين في عصر المعتضد بالله وأخيه الواثق بالله، حيث كن نساء بغداد في العهد العباسي، يتخذن اللون الأسود علامة على الحداد، إذ كانت النساء تصبغ القميص وغطاء الوجه وخمار الرأس باللون الأسود أو النيلي الغامق، على العكس من العهد الأموي التي كانت فيه ملابس الحداد بيضاء.

لكن البهجة في الثوب المصري، الذي وُصِفَ ببريق أكثر، ولاحقاً اكتشفت لماذا كانت السينما في مصر قبل أي بلد عربي، حيث يكتب المستشرق الهولندي ذاته عن لباس نساء القاهرة قوله:

«إنَّ النساء كنَّ يرتدين، حين يخرجن إلى مدينة القاهرة، أرديةً متماثلة، وأعنى بذلك أنهن، ساعة يزمعن البروز من منازلهن، تلتحف أجسامهن بقماش أبيض بديع ناعم الملمس، وأنهن يسحبن أرديتهن من الجهة الخلفية على الرأس، وأنهن يعلقن ملابسهن من الجهة الأمامية تحت العنق، وبعد ذلك يلففن أنفسهن بدقة وإحكام بهذا الرداء الذي يغطين ذواتهن به حتى مواقع أقدامهن».

هذا القرين بين الزّي هو جزء من قناعة الصبيان بكبت ذكورتهم المبكرة؛ لكنني مع تنوع ملامح الجواري واختلاسي النظر إلى مكان زينتهن وتبديل ملابسهن قبل العرض، وكان العرض

يبدأ ما بعد الشروق بساعة وينتهي ما قبل الشروق بساعة، وبينهما ساعة للراحة والإطعام، أما عندما تعطش جارية فتومئ لي برمشها وتبتسم فأعرف أنها ظمآنة، فأجلب لها الماء، وما قرأته من إغراءات ارتداء الثياب في بعض المدن والفرق عن ثياب بغداد، امتلكت حسّاً آخر، فكانت اللغة التي تعلمت التدوين بها تذهب بي إلى ليل لا يضيء فيه سوى قنديل شاحب، وبأجر ربع يوميتي أشتري ورقاً وأكتب عليها ما يسمونه اليوم الخواطر، مع أننا في العصر العباسي الثاني لا نفهم ما تعني الخاطرة إلاّ عبر الشعر وعاطفة القصيدة، وكان الشاعر فينا يظهر من بين عشرات الآلاف، حتى إنّ أعطيل قال مرّة كلاماً فيه الكثير من الدراية والحكمة قوله: الجواري الحسان شاعرات بنظرتهن ولا تحتاج ألسنتهن إلى نطق القوافي وامتلاك ملكتها وموهبتها.

عملي هذا وفّر لي أني انتبهت إلى النساء، بينما مَنْ كان في عمري لا يعرف سوى وجه أمه وأخواته.

ففي عصر لا يظهر من وجه المرأة سوى عين واحدة، وصباك يستقبل نساءً فارعات الطول ومتعطرات ومكشوفات الوجوه حتماً ستتغير حواسك وتشعر بسعادة ما لخفايا الجمال من تأثيرٍ حين يظهر كاملاً كنور شمس في عتمة لا تضيءُ فيها سوى الوجوه الشاحبة لإناث بيتك وأقاربك وربما جارك.

لكن، بفضل ما تعلمته عند الكتبة، سنحت لي الفرصة التقرب من واحدة تحسنُ الكتابة، وقد جيء بها من جهة حلب، أُخذَتْ سبيّةً في حرب بين الروم والعرب، وبيعت في القسطنطينية ثم بيعت إلى أعطيل، ويسمونها وردة الصباح؛ لأن بنات حلب كنّ من البياض ما كان يقال، وفي حلب ينفتح باب القلب، وتعرف أنّ النساء هنا خلقهن الرب.

هذه عندما عرفتْ أني أحسن القراءة والكتابة كانت تستعيرُ مني صحائف فارغة للكتابة، وفي ليلها تكتبُ شيئاً اطلعت عليه لاحقاً، وقد تأخر بيعها في دكان ربّ عملي؛ لأنه يطلب لها ثمناً غالياً ويقول: تلك تجمع محاسن الشام وحلب، ولو كان هنا خليفة أموي لتفادها واشتراها بنض خزينته؛ لكنهم ذهبوا إلى بلاد الأندلس، وتركوا جواريهم تُباع في بغداد.

اكتشفت أنّ الجارية وردة الصباح كانت تقع في حبّ شاب من أهل حلب، وكان يميلُ إلى التصوف، ويعتقده مسلكاً ومشاعراً وتكية، وقد هجرها من أجل ذلك شطحةً منه أنه سيجد وجهاً حسناً في الجمال أكثر بريقاً من وجه وردة الصباح؛ ولكنها بقيت وفيةً له، ومتى هاج فيها الشوق إلى أيام غرامها كتبت إليه، وخبأت ما كتبت، ومرات تمزّق ما تكتب، ومما أعجبني في ما كتبت، وقد سمحت لي بقراءتي له، وهذا كان شرطي؛ أن أقرأ ما تكتب مقابل منحها الورقة

والحبر والقلم، وهي تكتب إلى متصوفها وحبيبها وكان اسمه حسن الحلبي:

«حبيبي حسن الحلبي، بولع صوفي أشتاق إليك، وبرقة من مدام فمك أحب تقبيلك، وبشوق المترف بعشق الملكات أرتقي إلى عرشك مولَعة بما شعرتُ به من فرح أني عرفتك وعشقتك وأنت تهمس لي: ومن بعض أحلام فمي على نهديكِ وهو يرضع الكلماتِ وشهيةً ما منحك الله من هاجس غريب، إننا كنا ننتظر بعضنا في قدر جميل وعجيب.

وها هو طيفكِ يشتعل عطوراً، ومتى احترق نهدك في فمي بللت حلمته كي يبرد، ثم أغوص في أنوثته، فيشعر كلانا برغبة في العناق، ومتى تعانقنا أتى همسك الشهرزادي، فضع فخذكِ على فخذي واصعد بعطر شفتيك، فأنتِ مهرتي التي تعشقني غراماً ومبادلة الرّوح والجسد».

لأوّل مرّة يهتزّ بدني وتنهض ذكورتي كما تنهض جذور الشجرة من عاصفة قوية.

كانت كلماتها شيئاً لم يمز عليّ بصحيفة، وكل الذي عليّ إنجازه في واجبات معلمي في الكتاتيب أن أستنسخ الأوراق الأولى من كتاب الجاحظ «الحيوان» وحين جاهرت أمام المعلم بقولي: إنك تطلب منا استنساخ ما لم نعرفه من هذه النصوص. ردّ عليّ وعصاه تهوي على كتفي: هذا الاستنساخ كتابة لأجل تقوية الخط، ومتى شعرتُ أنّ الفهم يتقبله دماغك نبدأ معكم بأبي حيان التوحيدي تستنسخونه وتناقشونه.

وأظن أنّ كلمات وردة الصباح فتحت للفهم باباً في دماغي قبل أن يفتحه أبو حيان التوحيدي، لهذا استغرب معلمي حين قمت وناقشته بما استنسخته لاحقاً من كلام الجاحظ في الحيوان وقد شذني فيه قول الجاحظ:

«وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح، وما غايتنا إلاّ أن تستفيدوا خيراً».

وقد طلبت من معلمي تفسيراً، ومع غرابة السؤال ظلّ لساعة يشرخ لي المعنى، فيما صرف التلاميذ الآخرين للعب بعيداً عن مكان الدرس، وقد كنت أشعرُ بصعوبةٍ في الفهم، فعمري لا يسمح بفتح مغاليق الكلمات؛ لأنني في الثالثة عشر من عمري؛ لكن الرقعة التي كتبتْ عليها وردة الصباح هاجسها الشهي ومتعة الشوق إلى الذكريات مع حبيبها قبل أن تسبى إلى الروم، وكيف هي سبية؟ وحتماً سيهيم بها أحدهم بسبب جمالها المبهر ويشتريها بثمن عشرين جارية.

كلام وردة الصباح هو من فتح المغاليق وأنضج لديّ بوارد وعي لما يقال في بلاغة المكان، ومن هذه الرقعة بدأت أنتهي إلى من يجلسون على دكات الجوامع وأبواب حمامات الرّجال

والنساء ولا يشعرون سوى بما يسكن صفنة عيونهم والغرق في لحظاتٍ لا نعرفها، وحين سألت عنهم أبي قال: هؤلاء يسمونهم المتصوفة.

وهكذا شعرتُ كما يشعرُ ذكور القرن الحادي والعشرين الذين يجيئون لاحقاً، وروحي قفزت لتعيش بينهم.

إنّ بعض الكلمات في أزمنة بني العباس كان لها فعل التنشيط على الذكور كما حبات الفياغرا الزرقاء التي اكتشفوها في أواخر القرن العشرين وشاعت بجنون بعد القرن الذي تلاه، ففي كلمات الجارية الحلبية شيءٌ سحريٌ في التحفيز وعاطفة الوصل إليها هي ما دفع صوفياً ليغير مكانه على دكة الجامع، ليقبل بمسافة النظر أمام دكان أعطيل، وحين شعرت أردت أن أغيظه فدسست له رقعة مكتوبة بخط وردة الصباح تقول فيها في مناغاة حبيبها الحلبي:

«أتخيلُ أن وجهكِ عطري، وحلمك قمري. وضحكتك أسرار النظرة لتفحص طريق حياتي بأنوثة الشوارع».

وأقسم إنّ الصوفي حين قرأها تيبس ولم يتحرك بعد ذلك، لهذا قلتُ لوردة الصباح: إنّ كلامك هذا يقتل صنفاً معيناً من الرّجال.

قالت: هؤلاء أعرفهم، كان الكثير منهم على دكات جوامع حلب. هؤلاء الذين بدأت أنتبه إليهم في نهارات السوق البغدادي، وفي ولع غريب كنت فيه، وقد دخلت الرابع عشر من عمري، وكانت الجواري يطلقن عليّ لقب صبي النظرة العاطفية، وهو مصطلح عصيّ على عمري فهمه، وحتى رب عملي أعطيل قال لي: يا ولد لم نألف في لغة الحبّ في زماننا هكذا نوع من العبارات وحتماً عبارة صبي النظرة العاطفية آتية من لغة إفرنجية، أو من بلاد ما وراء النهر، لكن وردة الصباح أخبرتني:

إنّ في قراطيس عاشقات حلب أكثر من هذا في نطق عبارة المودة وكأنها ترتدي ثوباً لامعاً من القماش الدمشقي وفوشى بخيوط الذهب!

أما قراطيسي فقد شحّت هذه الأيام وانقطعت هديتي إلى الجارية حيث كنت أدسّ إليها كلّ يوم ورقة بحجم كف، وصار الورق غالياً هذه الأيام، وقد فسر لي الوراق هذا، أن الورق كان مصدره قصب بطائح الأهوار، وهي الآن بيد الزّنج، فنصحني أن أفعل كما كان يفعل الأولون من أهل بابل والنمرود وسواهم بالكتابة على لوح الطين، وحين استحسنت الأمر وذهبت بلوح منه إلى الجارية الحلبية امتنعت عن قبوله وقالت: إنّ ملابسي ستتسخ وسيغضب صاحب الدكان، فالثوب الذي أرتديه يكلفه الكثير وهو مثل الأمانة على جسدي، فمتى سيتم بيعي سيخلعه مني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويجد له ذات مقاسه على جسد جارية أخرى.

وكان أعطيل عندما تباع جارية يخلغ عنها الثوب ويرسله إلى والدتي لتغسله بعناية وتعيده إليه، يرشُ عليه العطر ويعطيه لواحدة جديدة يكون الثوب على مقاسها، وكان يعطي أمي ديناراً عباسياً واحداً قيمة لغسل عشرين ثوباً، وكان عليها أن تنتظر أشهراً طوالاً حتى يكتمل عدد الملابس المغسولة لتستلم أجرها، وطالما اختلف معها في عدّ الثياب، وكنتُ أنا شاهداً على صدق عدّ أمي للثياب، ولأول مرّة أسمع في ضحكته هذا الكلام: وشهد شاهد من أهلها.

الفصل الثالث

الحلاجُ في الفيس بوك

أفرخ في سريرتي لأكون شاهداً على عصر الصوفيين والجواري، ثم تنقلني أطياف الزمن لأعيش في القرن الواحد والعشرين وبذات جهة الكرخ؛ حيث أتواجد طيفاً في أثير مواقع التواصل الاجتماعي، وقد أسست صفحتين على موقع الفيس بوك: واحدة باسم (الصوفي منصور الحلاج) الذي سأتحدثُ عن قصتي معه، وكيف تعرفت عليه يوم كنت صانعاً في محل الجواري، والصفحة الثانية أسميتها (جواري السينما الفاتنات).

بين جواري السينما وجواري السوق البغدادي تُضاء شاشات السينما بأجفان المتصوفة والجالسين على مصاطب قاعات العرض من المدمنين على حضورِ أفلام وجوه يهتمون بها، وكلٌ حَسَبَ ميول عاطفته وذكورته وأغلبهم مسحورون بأفلام قطة فرنسية تُدعى بريجيت باردو. ومن يستيقظ فيهم جمر الشرق تراهم مسحورين بسيقان الراقصة نجوى فؤاد، ومنهم من يُعدُّ إيطاليا شرقاً، فيهيم بعينَي صوفيا لورين ونهديها المنفوخين مثل كرتي شحم أسمر مغرٍ، والطرفان: المتصوفة ورواد السينما يغمضان الأجفان متى أرادا استحضار واحدة من جواري الشاشات، وكنتُ أتخيل لو أنّ هند رستم جاريةٌ عند ربّ عملي لأصبحت قاطع طريق لقوافل التجار، وبما أحصل عليه من مال أشتريها لتعيدَ في الليل أمامي كلّ مشاهد الإغراء في فيلم «باب الحديد» مع يوسف شاهين، والذي حضرت عرضه، وأنا في أول مراحل البلوغ، فاحترقت وقتها من أصابع قدمي حتى شعر رأسي، وتبلل فخذاي وقتها، وشعرت أنّ كلّ الجالسين معي على مصطبة الخشب في لحظة العرض قد تبللت أفخاذهم أيضاً، ومختصر قصة الفيلم يقول:

«حيث تدورُ أحداث الفيلم حول «قناوي» (يوسف شاهين) بائع الجرائد غير المتزن عقلياً والمثار جنسياً من جانب «هنومة» (هند رستم) التي تشفق عليه؛ لكنها تنوي الزواج من أبي سريع (فريد شوقي) وعندما تبدأ هنومة بالاستعداد للزواج، يقرّرُ قتلها؛ لكنه يقتل فتاة أخرى عن طريق الخطأ، ويحاول إلصاق التهمة بخطيب هنومة «أبي سريع» (فريد شوقي) وفي النهاية يُبلّغُ عن قناوي مريضاً نفسياً، ويتم الإيقاع به عن طريق «عم مدبولي» (حسن البارودي) الذي كان كأب له).

لكنّ هناك فرقٌ بين جواري شاشات السينما وجواري حانوت أعطيل، فمثلاً: الجارية وردة الصباح يمكنها أن تُباع وتُشترى سلعةً، وتصبحَ ملكاً لواحد تسليه في ليله ووسادته وكؤوس شرابه، وتضرب له بوتر العود لتنعشه بطرب ولهو ورقص، بينما جاريات السينما يتعاملن مع

الآخرين بسحر النظرة والأداء (التمثيل) وهو بضاعتهن إلينا، فلا نمتلك معهن سوى الأماني، وفي العادة يصبحن صاحبات السلطة في التحكم بالعاطفة المتبادلة بين الشاشة، فهنّ على شكل فيلم سينمائي، وبين من ينظر إليهن بشغف التخيل، وأيضاً هن ثريات ويملكن الملابس والجواهر، وأغلبهن يرتبطن شرعاً بزوج أو بعلاقة عاطفية بصديق، وهن في نظرة التملك مشاعات لجميع من يحضر ليشاهد أداءهن، وهنّ يجسدن روايات يكتبها غيرهن.

وكلّ علاقتهن بالمشاهد تقف عند تلك الحدود، والرابط الآخر غير الشاشات هو المجلات الفنية، أو تلك الصور التي تسوقها الممثلات للمعجبين، وهذا لا ينطبق على الممثلين، على الرّغم من تشابه الحالة بينهما؛ لأن الممثل هنا لن يكون جارية؛ بل إنّ بعض معجباتهم، بسبب هاجس المشاهدة والإعجاب، يتحولن إلى عاشقات لهم، ويتمنين أن يكنّ جاريات في بعض الأحيان ليستمتعن بشباب وجمال وسحر الممثل في قلوبهن، ويمكن أن نجعل الممثل الفرنسي آلن ديلون مثالاً على ذلك، ومن العرب هناك الممثل حسين فهمي، والأمريكي دي كابريو.

ولهذا فإنّ جواري السينما في الصفحة التي فتحتها على الفيس بوك أردت فيها ربطاً لتلك المشاعر البعيدة يوم كنت صانعاً بحانوت، والآن أنا أمتهن حرفة أخرى، هي من بعض أماني الأمس عندما ورثت من أبي الوراق حانوته في شارع المتنبي وأسميته مكتبة الولد العباسي.

وعادة لا تقل الحركة في السوق في كلّ أيام الأسبوع عدا الجمعة، فكنت مع شحة الزبائن ومقتني الكتب التاريخية التي تخصصت ببيعها.

أذهب لأفتح الصفحتين اللتين تهمّ جواري السينما، والثانية افترضت نفسي فيها حلاجاً، وأغلب من طلب صداقتي من مدمني التعرف على الصوفيين وطقوسهم، وبعضهم في مخاطبتهم لي يتخيلني الحلاج نفسه فيكلمني بعبارات تحمل شغفاً في المناداة، وفي نهاية الحوار يطلبون نصيحتي.

ليس الأمر سهلاً أن تؤسس لهاجسين في عصر غير عصرهما، فربما جواري السينما يعشن زمنهن، ومن ماتت ليس ببعيد، لكني مع الحلاج وجدت مشقة لأفهم الصوفي الذي افترضت أنه مولود في قرية البيضة في حواف أهوار العمارة، حيث خدمتُ سنوات من جنديتي أيام الحرب، وأحبّ أن أكشف عن أنني شاركت في حرب الزنج وأخي شارك في حرب أخرى قادمة بعد أكثر عام وفي المكان نفسه؛ الأولى حين شحت أعداد الجيش عند الواثق بالله شقيق الخليفة ليحارب به الزنج الذين تحزكوا من البرة، واستقروا قريباً من واسط، ولهم حاميات متفرقة في مناطق الأهوار يلوذون بغابات القصب مختفين يوم يشعرون بقوة هجوم الجيش العباسي

عليهم، فكان أن تمّ شوقي في هذا الجيش، وأتذكر طقوش وداعي لجواري الحانوت ودموعهن؛ لأنهن يفتقدن شهية نظراتي إليهن من أول طلوع الشمس حتى غروبها.

في الحرب الأولى لم يكن هناك قرب قرية البيضة، وهي الكلمة العامية والدارجة لكلمة بيضاء، يقال: إن الحسين أبا منصور الحلاج ولد فيها. لم يكن سوى قرى قصب تتناثر فوق الماء، وكان البر تراباً يربط بين بطائح القرنة وأهوار أرض ذي قار، قبل أن تتمدنّ وتصبح مدينة الناصرية التي أسس لبنائها والٍ عثماني اسمه مدحت باشا.

وحين عرف السوق الحلاج وأصبح ظاهرة يستمع إلى مناجاتها الناس اقتربت منه، وحاولت أن أستعيد معه ذكرياته عن مكان ولادته، فلم أحصل منه على جواب، ويبدو أنّ الصوفيين، عند دخولهم في عمر الغياب وأيامه، يفتقدون المعرفة المكانية ويتمسكون بالزمان، ولهذا جعلت عنوان صفحة الحلاج في الفيس بوك هذا القول:

«لا زمان إلاّ وجهه، ولا أوان إلاّ عطره، ولا وسادة إلاّ رحيق قلبه».

وحين وجّه أحد أصدقاء الصفحة سؤالاً: إنْ كان للقلب رحيقاً؟! ونقلت إليه السؤال فكان ردّه «القلوب التي أحبت بفضل الرّحيق، وهو من يجعل الصلاة واجبة في الحضن بين عشيق وعشيق.

الصفحتان هما من سيشغل هاجسي، أنا القادم من زمن كان فيه الصبيان يرتدون ثوباً واحداً لكلّ فصل، وحماماتنا في الصيف كانت شواطئ دجلة، وفي الشتاء قليلاً ما كنا نستحم، فلا حمامات ولا تواليت إلاّ في بيوت التجار وكبار العسس والأمراء، أما الخليفة فكان يجلس على مقعد من خزف مذهب ليقضي حاجته.

ويقال: إنّ هذا المقعد صُبّ ونُحِت في أصفهان بطلب من الخليفة، وأتوا به محملاً على بعيرين رُبطا ببعضهما، واستمرّ سيرهما من أصفهان إلى بغداد عشرين يوماً، ومن تملق من الوزراء والأعيان أراد له حفلاً رسمياً بمناسبة وصوله.

وأسمع من ربّ عملي أنّ وردة الصباح التي أصبحت مدللة مالكها، ويلبي لها ما تريد أرادت واحداً. فأقسم لها تاجرها بإنّ الخليفة سيصلبه على بوابة السوق حين يعرف أنّ أحداً غيره يستخدم في التواليت مقعد الخزف المذهب.

جواري الأمس كنّ يطلبن ما يعتقدن أنهن مدللات بعد زمنٍ من الاغتراب عن أوطانهنّ والسير الصعب والمذل في قوافل تطوي بيئات لم تمرّ بها نواظرهن بين صحارى وبحار ومزارع، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حظهن الأخير جهتان، أما مالكها فهو كريم في توفير ما تودُّ اقتناءه داخل البيت الذي لا يسمح لها إلاّ نادراً بمغادرته، وبين بخيل يبقى يعاملها بالاحتقار والقساوة والتملك.

أما جواري السينما اللائي ففتحت لهن صفحة على الفيس بوك فهن ثريات، ولديهن الملابس بأجمل «ماركاتها» والجواهر الغالية، ويغدق عليهن الأثرياء والملوك والأمراء بالهدايا، وأغلب شروطهن أن لا تُعلن أسماؤهن علناً، فيكون هذا إلى جانبهن وبه يتحاشين الفضيحة الإعلامية والاجتماعية والفنية؛ لأنَّ الكثير من الهدايا كانت من وراء عشق ورغبة بليلة في فندق.

أعرف أنَّ ممثلة مصرية، وهي تتحدثُ عن الليالي الحمراء لخديوي مصر الملك فاروق، أنه أتى بها، ليس على سرير؛ بل على المقعد الخلفي لسيارته ماركة «مرسيدس بينز» حمراء، طراز 770، لم ينتج منها سوى نسختين: الأولى أُهدِيَت لشاه إيران، والثانية للملك فاروق، وكان هذا الطراز يستخدمه الزعيم النازي هتلر، وهي اليوم في حوزة متحف كندي، وحصل عليها بمبلغ يقال: إنه تجاوز مليون دولار. ويُعرَف عن سيارة فاروق أنها كانت مصفحة ومزودة بزجاج سميك يقي ركابه من الصدمات.

تلك الممثلة سمعت الملك في غرامه المستعجل في المقعد الخلفي يقول لها: هنا أعذب للممارسة من تلك التي تتفنن فيها الجواري على سرير الغرفة الخاصة، والخاصة تعني الغرفة التي لا تعرف أسرارها الملكة.

عدا الغنى فجاريات السينما، وهن هنا لسن بصفة الاستعباد، بل بصفة من تتمناه أخيلة رواد السينما، وهن لسن ملزمات بقبوله أو معرفته، لم يخضعن لسلطة أحد سوى المخرج، أو المنتج، أو الماكيير ولفترة إعداد الفيلم وتصويره، ومن يمتلكهن دائماً، تلك الحالة لا تطول في علاقتها ومودتها، هو الزوج أو الصديق أو العشيق، وهو معلن ومعروف ويظهران فيها أمام الصحافة وفي المهرجانات، ولهما أماكن سرية تترصدهما فيها «كاميرات» الصحفيين الذين يبحثون عن الفضائح واللقطات والأخبار الحصرية، وكل شيء تعيشه جواري السينما هو قائم على إرادتهن وحريتهن، ومتى شعرت الممثلة السينمائية خلاف ذلك فإنها إما تعتزل العمل السينمائي، أو تنتحر كما فعلت الممثلة مارلين مونرو، والممثلة المصرية سعاد حسني والمطربة الفرنسية داليدا وأخريات كثيرات.

غيرَ أنَّ الاستلاب في عالم جواري ربّ عملي أعطيل كبير، ويتحول في لحظات خلوتهن مع أنفسهن إلى عزف حزين على آلة العود وبكاء صامت، وقد ذكرتْ هذا الحلبية وردة الصباح في إحدى كتاباتها فقالت: بكاؤنا لا عويل له، دموعنا صامتة يزنها مالكونا من أجل شهوتهم، وعندما

كنا سبايا يزنها المالكون من أجل حروبهم.

وعيت في مفارقات الأزمة وعصورها وأردتُ أن أكون شاهداً على عصرين، أتنقل بين هذا وذلك، وأعرف أنّ الحياة رحلة تبدأ بمحطة الرحم وتنتهي في محطة القبر؛ لكن صانع هذه الرواية سمحَ لروحي أن تستيقظ وتغادر لحدها، وحين فتحت عيني وجدتُ صباحاً لمقبرة كبيرة اسمها «مقبرة الكرخ»، وشواهد القبور فيها مكتوبة على الرخام، وأكثرها شواهدَ لشهداء حروب ومفخخات وقتل وحوادث سيارات، ولا أعرف لماذا شعرت أنّ قبور الذين يموتون موتاً طبيعياً أقل عدداً.

أعود إلى دموع الجواري، وأتذكر قولاً لربّ عملي: الجواري سريعات البكاء، أكثر حماسة وحرارة في صنع غرام الليل، وهن الأكثر مهارة في العزف على أوتار العود.

وأتذكر قولاً لوردة الصباح ضمن هذا السياق وهي تكلّم حبيبها حسن الحلبي:

حين يتساقط دمعي، فأنت من يدفعه ليغادر مرايا العين؛ لأني أحبك حبّ الهوى، وحبّ الماء للعطش.

حتماً هو يتحدثُ بخبرته، وكنت حين أرى دمعة في أجفان وردة الصباح أتخيل أني أسمع عزفاً جميلاً. الآن وأنا أفتح صفحة لجواري السينما وقد احتشدت صورهن فيها، فإني أجمع فقط دموع الممثلات المنتحرات، ومع تساقط هذا الدمع أتخيل عزفاً لواحدة من سمفونيات موزارت أو أغنية لكوكب الشرق أم كلثوم.

وقبل أن ألج إلى عالم آخر غير صباحات حانوت الجواري عليّ أن أكمل هاجسي مع الجارية الفاتنة التي تختلف كثيراً عن جواري السينما.

وعيث هذا حين أتى من أعجب بها واشتراها، وما تبقى منها العطر الذي أشمه كلّ صباح، وأنا أدنو منها للسلام وآخذ ابتسامتها في وجهي تعويذة لنهار أتمنى فيها أن لا تباع تلك الحلبية الممشوقة الطول، والفارعة مثل جذع نخلة والرطب فيها وفير.

ويوم بيعت أخذ الحزن مأخذه، وحين سألني أبي قائلاً: ما لعينيك يتجمع فيهما الدمع؟!

قلت: من غبار في الطريق لصق بهما فأدمعتا.

ردّ بذكاء قال: ولكن الصبيان بعمرك لا يعشقون هكذا؟

فردّ خجلي صامتاً والدموع تنهمر: ولكن هذا الصبي عاشق يا أبي.

الأوراق التي تركتها لي وردة الصباح كانت خبزاً لبوح التذكر، واللهفة التي تستيقظ معي لتسرع مستبشرة بنظرتها مع كلّ شروق شمس، ويوم يكون الصباح غائماً أعرف أنّ بريق أجفانها شمس أخرى، وحتى أصحاب حوانيت السوق اقتنعوا بضوء الفتنة، فكان الجميع على نفس الأمل الذي في داخلي أن لا تباع تلك الدمية الناعمة الخد.

أقول: «الدمية» مستعيراً شيوع المفردة في طفولة قرن جواري شاشات السينما، أما في عهدنا فالدمى خشب وطين وخرق قماش، وأعرف أن من بين الجواري واحدة شركسية جلبت معها دمى طفولتها، وكانت مصنوعة من خشب البلوط، ومحفور على خدها ورد مذهب ونجوم من نحاس، كانت ترتدي ثوباً من الساتان، ويوم بيعت تلك الجارية تركت دميتها عندي وهي تعرف أن من اشتراها يريد أنوثتها ولا يريد طفولتها.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابع

عن الحلبية وردة الصباح

أوراق وردة الصباح هي كلّ ما تبقى من عطر نظرتها التي امتلأت بالدّمع في آخر نظرة إليّ، وصاحب الحانوت أعطيل يقول لها: ستذهبين إلى قصر وستحصلين فيه ما لذّ وطاب من أكل وملبس وشراب، ولن تعطشي كلّ ساعتين بسبب لهيب شمس الوقوف هنا.

فيردُّ صمتها الدامع، وحزني أمامها يقف مرتبكاً وحنوناً: وسأترك هذا الولد الذي يفهم ما يكتبه قلبي وحنيني هناك إلى صباح في حلب أخذ منه الروم ذكرياتي، وانتهت في بغداد أمنياتي لأكون جارية. سأبدأ ضاربة للعود وأنتهي طباخة وإلى موت في مقبرة لا شاهدة فيها على قبري.

قال أعطيل، وقد فهم مغزى نظرتها إليّ: هذا قَدَرُ كلّ جارية، وعادة جميع النساء تكون لُحوذهنّ من دون شواهد، عدا زوجات الخلفاء والأمراء ومَنْ أصبحنّ يسيرات الحال وصاحبات مجالس.

ردت عليه وردة الصباح: تمنيتُ أن تبيعني إلى واحدة من صاحبات المجالس، فسأكون أكثر حظوة، وربما حين أكبر ستشفق على حالي وتعيدني إلى قريتي في أطراف حلب.

قال: أنا أبيع لمن يدفع ما أطلبه من ثمن، وقد اشتراكِ من عرف أنك تستحقين أن يدفع من أجلك المال الكثير.

أخذوها في اليوم نفسه بهودج يحمله عبدان حبشيان بما يشبه زفة العرس، وأعرف أني ليس الوحيد الباكي لرؤية هذا المشهد، فلقد بكى الكثير من أصحاب حوانيت السوق، وكان من الباكين وانتبهت له، صاحب تكية غير بعيدة عن واجهة حانوت أعطيل، صوفي يُدعى الحلاج.

ولاحقاً فكرت أن أكون بستانياً في حديقة بيت هذا التاجر، وذهبت إلى حاجب المنزل أسأله الوظيفة حتى لو بدرهم كلّ شهر فقال: إننا نريد فلاحاً ريفياً يعرف ما يزرع ويقطف، وأنت لا شيء من الفلاحة في وجهك، بل في وجهك عشق.

تعجبت، حتى عند الحاجب مفضوحة ملامحي، وعلى الرغم من هذا كنت فقط أريد أن أنظر إليها، وأتذكر من قراطيسها ما كتبته: النظرة مثل الشجرة إذا لم تدمع من الشوق يبست جذورها.

وها أنا أحمل تلك العبارة هي ودمعتها، وأقف قدام قصر من اشتراها، فلا أسمع سوى تغريد

عصافير الحديقة، وأعرف إن جئت ليلاً سيأتيني عبر سور القصر ضرب أوتار عودها، وأعرف أنّ مالكها سيطلب منها غراماً بعدما ينتشي في سكرته، فتصده وتزيد له من العزف حتى يثمل كثيراً وينام.

كنتُ أتمنى النظر إلى وجهٍ تعودت النظر إليه، فأستعيد من فتنة كلماتها يقظة لأشياء لم يكن شباب وصبيان الزمن العباسي يعرفونها، من عرفها هم الشعراء والمغنون، وبعض الوراقين، ومتصوفة التكيات.

أريدها أن تعرف أني أصبحت شاباً وأنني بلغت، وصار الشوق عندي ناراً تغلي على وجنتي وأفخاذي ورعشة أصابعي، وما تركته من صحائف عندي كانت كما فسرها لي الحلاج يوم تعرفت عليه وعرفت أنّ له من الهيام فيها اشتياقاً، وقد سمع عنها وأتى ليؤسس تكية أمام حانوت مالكها أعطيل، قوله وهو يتهدج وشفتاه ترتجفان شوقاً: إنّ في صحائف عبارات، تعيش الهيجان وتتخطى أدعية الرهبان، وفيها عاطفة لم تألفها خطابات الهوى.

فأوقفت الإعلان عن أوراقها عند أبي منصور الحلاج فقط، وهو يقول: لا تعرضها على شاردي الهوى من أمثالي، فقد يشهق بعضهم ويموت، أما أنا فإني صمدت لأنني ذاهب إلى مهجته، والجارية المثيرة مهجة مكان، وهو المقصد الذي هو الآن في العلا والزمان والمكان.

لا يتحدث الصوفيون عن الإثارة سوى بما تشعر به أرواحهم، ولهذا ما تظهره أجفانهم يظهره أيضاً اهتزاز أبدانهم، وإن اجتمع لمعان الجفن مع رعشة البدن كانت الإثارة؛ لكنهم لا يبيعون منها شيئاً، حتى إنّ واحداً من الفقهاء يكرههم ويسعى لتعليقهم على خشبات الصلب كلما سنحت له فرصة بين يدي الأمير أو الخليفة، يقول عنهم: هؤلاء يكونون بأبدان لا تعرف الماء والصابون فمن أين تأتيهم الإثارة؟

فردوا عليه: تأتي من الذي هو أعلى من أية منارة.

ويقال: إنّ هذا الشيخ استشاط غضباً وقال: إما أنا في بغداد أو هم. ويقال أيضاً: إنّ بعد أسبوع من هذا الردّ استطاع أن يعلق سبعة من ثلاثين صوفياً يتوافدون على تكيات أسواق بغداد وجوامعها، وقد هتف في وجه الحلاج قائلاً: صلبت سبعة، وأدعو الله أن تكون أنت الثامن.

فردّ الحلاج: الثامن في العشق معراجه ابتسامة وردة الصباح.

فردّ الشيخ: لن تشفع لك، فقد بيعت وبقيتَ أنت لا تعرف أنّ الماء له صابون، ولا تدرك أن المغسول يمنع عنك حكمة البهلول، ولا ترى في النهر صورة بدنك، بل ترى الغرق فقط.

الممسوحة ضوئياً بـ CamScanner

رد الحلاج: أما من بيعت فأنا أقتاد بعطر ذكريات نظري إليها، فأما الصابون فآدم يظلُّ يستحمُّ بحضن حواء ونظرتها، وأما المغسول، فهو ليس لصيقاً بالجسد، فالمغسول بالدم هذا سفاح، والمغسول بالكتب هذا حكيم، والبهلول ترك الصابون واغتسلَ بالكتب فصار حكيماً، أما النهر، فهو من نعرفه نحن على أنه موجة سفرٍ وحركة الروح وليس لاغتسال، ومن يغرق فيه هذا محتفٍ بقدره ليكون بلا هواء، ومن يودعه أولئك الواقفون على الضفاف، وأنت لا تصلح أن تكون بينهم؛ لأنك ضبغت بدم الأبرياء من أخوتي ولون مهجتي.

لهذا، وبعيداً عن اجتهادك ومواعظك، أقول لك يا هذا: الرؤية القائمة على الشوق، وتفسر المحبة باللقيا، وأنا أريد أن ألتقي بمن يهواه الفؤاد، والمحطات بيننا قبلات فمي على فمه.

زعق الشيخ وقال: هذا يجاهر بالكفر علناً ويتخيل أن لله فماً ليقبله.

قال الحلاج: لم أقل هذا، بل أنا أقصد من يمثله.

قال الشيخ: يا ملعون! وهل يمثل الله جارية.

قال الحلاج: وتبقى لا تدرك في الكلام القصد فتكون عاجزاً على الردّ.

تشجعت وتقدمت صوب الشيخ، وهو يضمر للحلاج حقده، وقد تجمع حشدٌ من الناس لم يحرك أي واحد منه ساكناً، وقلت: يا شيخ اترك الرجل بما يتخيل ويحسّ.

ردّ الشيخ: وأنت مثلهم ريبب لحوانيت الجواري، وأظنك مثله في النهاية تجلس على دكة لينتظرك فرمانُ صلب.

ارتعبتُ من هذا التهديد والوعيد، فاخترق أبي الواقفين، ولفَّ عليَّ عباءته، ووجه كلامه إلى الشيخ وقال: إنْ حدثَ هذا لابني سأفلق رأسك بعمود إلى نصفين.

قال الشيخ: أنا أحذره، وتلك نهاية من يتخيل أنَّ الشفاه في قبلتها تقرباً إلى الجليل، وفي عيون ولدك شغف ليكون مثلهم.

قال أبي: لم يزل ولدي يحبو في حياته ليتدبر عيشته، ولا يملك ميلاً إلى أن يكون مثلهم.

قال الشيخ: وهذا ما أتمناه، وليكفَّ عن الاقتراب من تكية هذا الصوفي الماجن.

قال الحلاج: الماجن من يكرهُ نفسه ويغالط حسّه، ويسابق يومه إلى أمسه.

قال الشيخ: وكلُّ الذي ذكرته ليس عندي، بل عندك!

قال الحلاج: ليكن الذي فوقنا حكماً بيننا.

قال الشيخ: والذي فوقنا أعطى تفويضاً للخليفة والقاضي ورئيس العسس.

قال الحلاج: وأنا لا أرضى سوى بحكمه.

قال الشيخ: أنا ذاهب وسترى العاقبة، وأقل ما أفعله لك أن تكون الزنزانة بيتك.

قال الحلاج: ولتكن ما دمت أختلي فيها مع نفسي وأدرك أني في صلح مع صلاتي ورغبتي وحسّي.

الناس لم ترضَ على حقدِ الشيخ وهو يضمر الأذى في عينيه ولسانه، فصاروا ينظرون إليه بعدم الرضى، وإلى الحلاج بالإشفاق، فحمل جبته وخطواته وابتعد عن المكان.

أترك الحلاج مع قدره، وأنا أعرف أنه سيكون ثامناً في الشاهدة بسبب ضغينة هذا الشيخ، وعدتُ إلى قراطيس الهوى أتذكرُ صباحات ملهمتي وقد أحسّ أعطيل بشغفي وصار ينقص من يوميتي فأرضى، وخفت أن يطلب مني أن أشتغل لديه بالمجان، ولكنه عاد وأشفق علي وأعاد اليومية إلى عهدها السابق حين علمت وردة الصباح وحملت في عينيها غيضاً إليه، فشعَّ فيّ فرحٌ أني انتصرت على أعطيل وصار ينقدني شهريتي وهو مبتسم، لأذهب إلى الوراق وأعطي للجارية الحسناء بعضاً من الورق الذي اشتريه، وأنتظر التدوين، فأتذكر كيف أنّ بعض الكلام أوقف قلب الصوفي الذي اسمه عارف فحملوه إلى مقبرة الكرخ، وكنت وحدي بين المشيعين من كان يعرف سبب موته، ولكن الذين حملوا نعشه سمعوا كلمات من داخل التابوت؛ لكنها منطوقة بما يألفونه من سماع فقالوا: هذا كلام الجنّ الذين يسكنون جسده، وكادوا يرمون التابوت ليهربوا، فأوقفتهم وقلت لهم سأفسر لكم ما يقوله: الرعشة بين شفتيه جعلته لا يوصل صدى الكلمات بما تفهمونه، وحين ترجمتُ لهم قوله، نصفهم بكى وقالوا: لنصلي عليه جماعة قبل دفنه.

الآن عرفتُ أنّ للصوفيين تراتيلَ أخيرة وهم على الجنازة، وهذا التهدّج هو آخر كلمات تأثرتْ بها الروح، ومن كانت الكلمات سبباً لخروج روحه عن جسدها تأتي كلماته بحنجرة عالية، لكن الفهم غير واضح.

ولاحقاً سألت الحلاج عن هذا فقال: من ينطق بكلمة في عزاء توقف الهيام عنده، فيسعى لاستعادته، وتلك الكلمات صنيعة الفؤاد يبثها بنبض موسيقي قبل الرقاد، وأظنّ أنّ نهايتي تذهب إلى ذات المراد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا أعيش غرابة أن يكون يومي مع الحلاج طقساً أفرح فيه لأنه اطمأن إليّ، بينما كان كثير التجاهل للآخر الذي يقترب منه بفضول، وسرعان ما يهرب منه بسبب رائحة بدنه وصوف عباءته في ظهيرة قائظة، وهو في الغياب يردُّ على الذين ينفرون من الاقتراب: هو سلوى لكلّ عطر، حتى في الظهيرة ينسل إليّ ضوء قمر. اذهبوا فهو لا يليق بكم، بل يليق بي.

أفرح لأن الحلاج ارتاح إلى واحد من عامة الناس، وصار يقبل الماء والخبز والتمر الذي أقدمه اليه، ومرّات كانت وردة الصباح ترسل بيدي حبة مشمش، أو حبة خوخ، أو عنقود عنب، فيعرف أنه منها، فيقبل، وأحسّه يسكن بسعادة وابتسام وهو يقول: عنقود عنب من ساحرة ومنيرة يخلط رمضان برجب، فنفطر فينا السلوى وفرحة القلب.

أفرح لأني أصبحت قريباً إلى منصته، إذ سمح لي الجلوس قربه، ولكنه كان قليل الردّ على أسئلتي وهو يستطعم بفرح حبة الخوخ أو المشمش، وتلك المنصة التي كان يجلس عليها لاحقاً اكتشفت في تقارب غرضها مع منصات عرفتها حين ركبت قطار الزّمن وأتيت إلى القرن الواحد والعشرين، حيث وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» تطلق مركباتها الفضائية من منصات حديدية، بينما كانت منصة الحلاج من الطين، وناسا تطلق منها صواريخ ومركبات إلى السماء البعيدة، والحلاج مثلهم يطلق منها صلوات وأدعية وأمنيات؛ لكن الفرق أنّ سفائن ناسا تعود إلى الأرض بينما أمنيات وأدعية وقصائد الحلاج لا تعود.

ومتى عرفت أنّ مركبةً من تلك المركبات قد وصلت إلى كوكب المريخ أدرك أن مركبات الصوفيين تصل إلى أبعد من ذلك، وبسبب شعورهم أنهم وصلوا إلى تلك الأمكنة اغتاظ العلماء وعدّوا هذا كفراً وهرطقة وزندقةً؛ لأنّ ما يشيرون إلى أنهم وصلوا إليه لم يصل إلى سدته سوى الرّسول الكريم في إسرائه ومعراجه، ومتى حاجُوا الصوفيين بهذا، لم يقنعوا الفقهاء، وأحياناً تكون ردود الصوفيين غير مفهومة.

لهذا عرفتُ أنّ الصوفيين لديهم أخيلة بعيدة تماماً عن الواقع؛ ذلك لأنهم لا يستطيعون استعادة ما ينطقون من أخيلة وكلمات من منصاتهم، تذهب إلى السماع ثم النسيان، وقليل منهم يتمّ تدوينه من قبل متطوعين يستأنسون إلى كلامه، وليس بالضرورة أن يكونوا مؤمنين بما يقولونه ويتلوه الصوفيون ومنهم أنا.

هذه أخيلتهم كانوا يطلقونها بمركبات فضاء تسكن عقولهم وحواسهم لتذهب إلى أبعد ما يتخيلونه، حتى إنّ أحد متصوفة طشقند وهو من أصول مغولية نطقَ في لحظة رغبة الوصول قولَه: ها أنت عني بمسافة بوصة واحدة، فسأقبلك لتشع في داخلي.

سمعه عسس الوالي ونقلوا هذا إلى شيخ الفقهاء، فقال: هذا لا يصلح إلاّ أن أقتله بيدي، فقام وأخذ سيفاً من قائد الشرطة وذهب إلى منصة الصوفي وقطع رأسه بنفسه.

وهكذا هم لا يموتون على المقاصل فقط؛ بل وهم جالسون على منصاتهم حيث يتمنون أن ينطلقوا منها إلى أبعد ما في السماء من بهجةِ ولُقيا، وهم يبحثون عن نجم مسرتهم ويعتقدون أنّ لمعانه يتوهج في بدن الشفيع لحالة المنى التي تسكن الروح قبل البدن.

ومتى أتيت إلى هذا القرن الجديد أنتهِ إلى المنصات، فأجدها لمراكب الفضاء وخطابات السياسة والغناء والوعظ، إنها مختلفة القصد فيما كانت منصة الصوفيين بمقصد واحد، لكن الفارق المهم بين منصات ناسا وتلك التي يجلس عليها الحلاج، أنّ ناسا كانت تبحث عن حياة بشرية، أو عن كائنات أخرى في الكواكب البعيدة، وكان الحلاج يبحث عن الله فقط، وقد كلفه البحث أنني كنتُ أمرُّ كلَّ يوم على جثته المقطعة وقد أتت إليها نوارس من دجلة تستطيب منها شيئاً، وأظنُّ أنها كانت تلتقط كلمات أشعاره وأفكاره من جسده المتفسخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصلُ الخامس

الرّؤيا تمضي، والعشقُ حافلتها

أجلست صباح عينيك على ركبتي، واكتشفت أني من دون صباحك أبيع الغيوم إلى الحدائق من دونِ مطر.

هذا تدوين من أوراقها، حين وضعته على صفحة الحلاج غضب واستنكر وقال: لا تضع بصفحتي ما ليس لي حتى لو كان لجارية.

طيبتُ من خاطره بأنْ أهديته عطراً فرنسياً اشتريته من صاحب عطور مندائي في شارع النهر ببغداد، وتعجبتُ حين رأيت مندائياً يبيع العطور، وحين سألته أجابني: أنع كان قبل ذلك صائغُ ذهب معروفاً، وزبائنه من العوائل البغدادية الثرية المعروفة، وهمس لي أن من بين زبائنه كانت زوجة الرئيس السابق، وكان لديه مالٌ وفيرٌ؛ لكنه بعد احتلال العراق بعام، وكان بيته في منطقة البياع، اختطفوا ابنته المعلمة حين كانت ذاهبة إلى مدرستها، واشترطوا عليه عشر كيلوات من الذهب و500 مليون دينار ليعيدوها إليه، ويقول: أعطيتهم كلّ ما ملكته في مهنتي، ولكنهم أعادوها إليّ جثة هامدة، فتركت المهنة لأبيع العطور؛ لأنها كانت تحبُ أن تكون معطرة دائماً، ولأنّ مهنة الصياغة تجلبُ العين، حولت الدكان إلى مهنة أخرى، ولا فرق بين الذهب والعطر؛ إذ كلاهما مرغوب من النساء.

قبل الحلاج العطر؛ لأنه من مندائي، وأخبرني أنّ هؤلاء لديهم قرية قريبة من مكان ولادته عند حافات الأهوار في البيضاء، ويعتقد أنّ البيضاء سميت بهذا الاسم؛ لأن ثياب المندائيين بيضاء وهم يرتدونها في طقوسهم التي تقام في الأنهر، وكان دجلة قريباً من البيضاء التي عكست ضياءً مشعاً على المكان فسميت البيضاء، ويقول: كنت في صباي أراهم وأحسدهم؛ لأنهم يؤثرون الصمت ويعشقون الإشارة ويميلون إلى الهدوء ويختصرون الرّدود بالابتسامات.

- وأنت تعلمت منهم لتكون قليل الردود، كثير الإيماءة، وحين تنطق يؤخذ عليك أنك تحرّف وتتباهى وتشرك وتخالط ما لا نستطيع أن ننال منه سوى الرّحمة عن طريق الدعاء.

قال: ذلك أنتم ولا شأن لي بأنتم؛ شأني بـ(أنا).

تلك الأنا هي من كسبت خمسة آلاف صديق وآلاف المتابعين في صفحتها على الفيس بوك، ولا أدري كيف شعر المتابعون أنّ الحلاج حياً، إذ ابتدأ الصفحة بأول تهدّج، فنال إعجاب الخمسة آلاف، كلهم ونصفهم من أضاف تعليقاً، وحين استفسر مني عن التعليقات والقلوب المرسومة

تحت عبارته.

قلتُ له: ستجد نوعين من المتابعين، فإنْ وضعوا إشارة أو قلباً أحمرَ صغيراً، فهو «لايك» ويعني إعجاب، وهناك نوعٌ هو التعليقات؛ حين يتعاطفون مع عبارتك.

قال: لنجرب.

قلت: اجعلها عولمة صوفية لتصل إلى الجميع، فبعضهم حين يرى عِمامتك في الصورة يعتقد أنك خطيبٌ أو فقيه، وقد لا يعرف عن الصوفية شيئاً.

قال: كلامي ينبههم إلى ما أنا مشدود إليه.

قلت اتلوها لأدوّنها نيابة عنك.

قال: هل تريدها شعراً أو نثراً؟

قلت: أتمناها نثراً ليسهل الفهم فيها.

قال: ومن قال لك: الحلاج يقول حتى يفهموه؟ وأنا أقول حتى يشعروني.

قلت: أنت وما تريده.

قال: اكتب.

قلت: هنا ورقتنا الشاشة والكيبورد.

قال: نعم أراها. واستغرب أن يصل بها نبض الصوفي إلى من يريد أن يديم معه وصلاً.

قلت: لا تخشى! لقد صار هذا ممكناً.

قال: إذاً اكتب.

انحنيتُ على الكيبورد في انتظار ما يتلوه، وأنا أسمع من جهته طرقتين: واحدة آتية من نبض قلبه، والأخرى من رعشة شفتيه، فعرفت أنّ الغرام سيصير في هذه الصفحة طوفاناً.

وسمعت منه أول نشر وهو:

((جزء من الحنين موسيقى الرّوح، وجزء من الرّوح ذاتها لأنها لا تتجزأ.

الزّجاج وحده هو من يتشظّى أجزاءً ودموعاً حادة.

يقول العارف لها: لا تجعل الثوب فمك؛ لأننا نلغيه في اشتياق الليل.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

تغمض عينها وتتخيل سرّها دونَ ثوب.

روح تطوف المجرات كلها)).

ولم يتوقف إذا ألحق عبارته الأولى بأخرى، اختصر فيه ما تلاه قبله، وقال لي: اكتبْ: الثوب أنثى والخياط عطره. فقلت: زِدْ حتى نجلبَ الانتباه.

فقال: سابع أيام الخلق نطفة.

وسابع أشواق الغرام قبلة فم...

قلت: وواحدة أخيرة لهذا اليوم.

قال: عندما اقترب الفجر، ثوبها استحى.

لم يجد قماشه على جسدها.

لم أنتظر سوى دقائق حتى جاء تعليقٌ أوليٌ من فتاة تقول: هل عدت ثانية للحياة؟ أعرف أن جسدك جُزِئَ إلى أجزاء؟!

قال: اكتبْ رداً: إنَّ القلب المؤمن بصدى ما يضيء فيه يُبعثُ من جديد.

ردٌ على الردّ: إذاً أهلا بك.

توالى المعلقون، وأغلبهم من هو معجب بالتراث الصوفي، وهم يعلمون أنَّ الحلاج لا يعود ليؤسس له صفحة على الفيس بوك؛ بل إنَّ مؤسسها هو من المعجبين به، أو من دارسيه، ومن التعليقات التي تتندر على هذه العودة قول أحدهم معلقاً: ما دام وضعت الحلاج على الفيس بوك والصفحة التعريفية تقول: إنه أبو المُغِيث الحُسَين بن مَنْصُور الحَلّاج (26 - 858 مارس، 922) (244 هـ 309 هـ) فعليه أن يغير ميلاده، وأن ينزع العِمامة والجبة، ويلبس بذلة وربطة عنق، ويضع العطر، فجواري هذا العصر يعشقن الأنيق وأصحاب سيارات الفيراري ولا يعشقن التكيات وأصحابها.

لكنه من بين العشرات مالت أنفاسه وردوه إلى أرملة من أهل عفك.

وحين سألته: ولماذا؟

قال: إنَّ فيها ولد النفري، وهو أصعبنا في نسج مودة الكلام وتلوين قصده ومهجته.

وحين سألته: وهل للكلام مهجة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: نعم، حين ترى له قلباً ينبضُ بين الحروف، وليس كل كلام له قلب؛ بل أغلبه له لسان فقط.

أنام وأصحو وأجد أنّ الأرملة والحلاج يقظان ويتسامران، وفي كلّ مرّة تشعرني حروفها أنها تملك السعادة، وهي تخبره: إنْ حسبتك زوجاً هل ترضى؟

قال: احسبيني خِلاً من الرّوح إلى الرّوح، وأما الزواج فأنا لا أختلط فيه؛ لأنه يحجزني عن التيه في البحث، ونحن من دون تيه يتامى.

قالت: حسبتك، والذي فقدته شهيدُ حرب.

قال: ابقي وفيةً له.

قالت: مات وهو يعشق غيري، وترملت، وترك لي الخيار في رسالة يعتذر فيها.

قال: هذا شهيد اللحظتين وأنت لست منهما. وأحب مع ذلك أن تكوني وفية له لأنه شهيد.

قالت: وماذا تقصد باللحظتين؟

قال: الوطن وعشيقته.

قالت: وما دمت أنا خارج معادلة قلبه أتيت إليك.

قال: وأنا لن أفيدك.

قرأ أصدقاء الصفحة هذه المساجلة، وانقسموا فريقين: واحد مع الأرملة، والآخر مع الشهيد.

فما كان منه إلاّ أنْ قال: زدْ عليهم بإسمي رداً جماعياً: من ترملت دون مشاعر بالوفاء فهي قدرها من البؤس ما يحق لها أن تختار، ومن ترملت على حبٍّ فليبقَ هذا الشهيد هو زمنها كله.

على هذا الردّ: الفريقان وضعوا قلوب إعجاب حمراء، أما الأرملة فقد اغتاظت وقالت: أنت لم تنصفني، ومعك أردتُ الهروب من حالتي.

كتبت له نيابة عنه: وهو يعتذر.

قالت: وسأردّ على الاعتذار أني أحظر صفحته، فهو لا يشفي بردوده سوى ما تعود عليه، قل له: إن هذا العصر حتى بمشاعر الحبّ هو غير عصره.

همس الحلاج إليّ وقال: أشعر أنك تورطني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الليلة الأولى كان النشر مشكوك فيه، وأغلب من أعجبته العبارات شعرَ أنَّ واحداً يتقمص شخصية أبي منصور الحلاج، وأحدهم كتب: إن الكتابة باسم الحلاج سخافة.

فأقسمت له أنَّ الحلاج هو من يكتب ومن يرد، وأني وهو مسكونان بهاجس التناسخ، وبه عدنا معاً من هناك.

قال المشكك: يا رجل، أو يا امرأة، أن تكون أنت من ذاك الزمن، فأنت تخالف العلم والمنطق، ولكن أن ترتدي جبته وتتكلم بصوته، فهذا جائز وممكن.

على الخاص أقسمت لهذا المعلق بألف إمام أننا من ذاك العصر، وبهوى الشطحة والتمني والإحلال أتينا إلى هذا العصر.

قال: حلفت بألف إمام، وأنا أعرف أنك تقصد علي وأبناءه، وأنا لا أؤمن سوى بما يقوله إمامي الشافعي.

قلت: كانت بغداد في وقت ما منقسمةً بين كرخ ورصافة، وفي القسم بأئمة البيت متحدثين.

قال: نحن لا نعوّل على القسم، نعوّل على الحجة والدليل.

قلت: هذا يعني أنك لن تصدق؟

قال: نعم.

قلت: وجب حظرك من الصفحة.

وهكذا يخرج آخر. الأرملة هي من حظرت الصفحة، وأنا حظرت صفحة المتشكك.

همس لي الحلاج: سترى من هؤلاء الكثير؛ لأننا نشأنا على الاختلاف والمناظرة، ومثل الحسين في عاشوراء من ناصرَهُ قليل، ومن اختلف معه كثير.

قلت: هم لم يختلفوا معه، بل خذلوه طمعاً في مغانم.

قال: لا قصة مع التشيع سوى الزهد في مائدة الإمام، وهم ربما لا يميلون إلى طقوسنا.

قلت: ومن يحبكم؟

قال: أرواحنا، والذي تذهب إليه التوسلات وقصائد العشق.

كنتُ أترك الصفحة وأنام، فأشعر أنَّ أصابع الروح مستيقظة تضرب على مفاتيح الكيبورد وتردُّ، وبمرور الأيام شعرت أنَّ أصدقاء الصفحة اكتمل، وأنَّ هذا العالم الافتراضي أخرج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحلاج من عزلته في قبو الظنّ بالوصول إلى مقصد المنى، إلى عالم متسع صار له فيه أصدقاء ومعجبون، ومرّات أرى في عينيه إشارات خجل ناعم فأشعر أنّ إحداهن قد صارحته بالحبّ، ولا أعرف إنْ كان قد قبل ذلك أو لم يقبل، وكنت أذكره دائماً أنّ القلب لجهته وفي، ومتى تبدلت الجهة أصبح النبض نشازاً.

فيردّ مستنكراً: تعلمني كلامي يا ولد!

فقلت: فقط أذكرك يا معلمي.

قال بعناد: وأنا أعرف أنّ هذا العالم زحزح من قناعته بهواجسه الكثيرة؛ لأتذكر من قاد خيول الذكرى في رأسك.

قلت: ولكن أنا من أتى بك؟

قال: وأنا من جعلك تحلمُ بما تودُّ أن يكون شهية العقل والقلب، وكنتُ أنا من أسرج لك خيول عربة الزمن.

قلت: أغلب قلوب أصدقاء صفحتك لا تصدّق أنك الحلاج الحقيقي.

ضحك وقال: الغريب في هذا أنّ الكثرة من الإناث تصدّق، ولا يهمني من الذكور؛ لأن النساء هنا كلّ واحدة في شفتيها ومفاتيح الكيبورد ألف قصة. سأجمع متع همومهن وأصنع منها منحى آخر.

قلت: هذا خلاف لما صلبت من أجله.

قال: الفكرة إن بقيت عند بني العباس سيسحقها التاريخ بالمداس. أنا مع من يقول إذا دارت العجلة فإنّ العقل مصدرها وهوى الرّوح.

قلت: هل تعني بهوى الرّوح الغرام؟

قال: نعم. الغرام يسجلُ للعقل تفاصيل طيرانه وشيوع عاطفته وحلو كلامه.

قلت: ولكن هذا العالم افتراضي لن تجد فيه سوى الحروف.

ضحك وقال: ولكن هنا الصوت والكاميرا يكون تقارب الوصل فيهما ممكناً.

قلت: ربما إلى خدّ واحدة ونهدها، ولكنها ما توصلت إلى ما تتجه إليه ناسا؟

قال: في هذا العصر على الصوفي أن يبحث في الجديد ليوم متمكناً من الامتلاك، وناسا لن

تغلبني بمركبة فضاء إذا كانت رعشة الشفاه الأنثوية وميضاً لبرق الجهة التي أحنُّ إليه.

قلت: أنت تدفعني لأشعر أنَّ هذه الصفحة لكافر أو لمتصابٍ أو لشذاذ.

قال: أشعرُ بما تشعر. لقد عرفت كيف أدير الصفحة، وأضرب على مفاتيح الكيبورد، وأداري من أداري في الردّ.

تركته يديرها، وأنا ذهبت لأدير صفحة جواري السينما، وقد وجدتها ليس كما صفحة الحلاج الصوفي، ذلك لأنَّ الجميع يعرف الممثلات، والكثير منهم تعوَّد على رؤيتهن في أفلامهن، وهن بنات هذا العصر، وكم تمنيت أن أجيء بوجه وردة الصباح، وحتماً وجهها سيسرق كلَّ الوجوه، ومتى شعرتُ بفتور الصفحة وقلة متابعيها، أحسستُ بأنَّ أبا منصور الحلاج يتشمت فيَّ وهو زعلان حتماً؛ لأنَّ ثمة أموراً تفاجئه على الكيبورد، وطريقة الكتابة، وأخطاء الطبع، فلا يعرف معالجتها، وعلى الرغم من هذا أراه متحمساً يتوهج من عينيه نورٌ لم أره بتلك الشدّة يوم كان يجلس على دكته في سوق بغداد، وكنتُ أجئ إليه بعطفِ الجارية وحنانها وأسلمه عنقود عنب، فيقول: أعرف يا حلاج أنَّ الجمال لا ينساك لأنَّ له ربّاً يحب، ولهذا وصل العنب ونبض القلب.

وقتها كنت أرتجف وأبتعد عنه بعدما أرمي العنقود بين ركبتيه؛ لأنَّ ما يقوله يشعرني بالخوف، فهناك من يراقب كلامه وينقله إلى الشيخ المتربص به ليجمع حوله أدلة لدينه، وأول ما يتمناه أن يقنع الخليفة أنَّ الحلاج كافرٌ وزنديقٌ يقرب الذات الإلهية إلى بدنه.

فمرّة في آخر الليل، وقد كنتُ في الماسنجر أتحاور مع صديق مبدع في الرسم ليرسم لي لوحة متخيلة لوجه وردة الصباح كي أضيفها مع صور جواري السينما، وأعرف أن وجهها يجذب زائر الصفحة، وأعرف أنَّ سحرها سوف يتفوق على سحر كلِّ ممثلات السينما؛ ذلك لأنَّ الكثير من صاحبات الصور من جواري الشاشات السينما أخذ العمر منهن مأخذه وملأت التجاعيد وجوههن، ونال الشيب من رؤوسهن الكثير، وكثير من اللائي أضع صورهن قد رحلن من الحياة، فمثلاً مع صورة مارلين مونرو لن تكون في التعليقات سوى عبارة «الله يرحمها»، وبعضهم يستخف ويتشمت بجمالها الساحر ويكتب تعليقاً: «إلى جهنم وبئس المصير».

أما عن بريجيت باردو فعبارة: «كبرت وأصبحت عجوزاً شمطاء» هي الغالبة. ومن يحب أفلامها يعلق ويقول: «ستبقين قطة السينما المدللة».

مرّات عندما أدعو الحلاج في أول الصباح إلى الفطور وأعرف أنه سهر الليل كله في منادمة من يعشقن حلاوة ردوده وكلام فؤاده، وقد تعود أن يتناول جبنة «اللافاش كيري» (البقرة الضاحكة) الفرنسية ويسمونه في العراق جبن مثلثات، والبيض المقلي بطريقة العيون، ومربى

المشمش، وهو ينظر إلى المائدة ويقول: كلّ عصر له إفطاره إلاّ عصر الحبّ سيبقى ليله ليله، ونهاره نهاره.

في جلسة الإفطار كنت أسأله: إن كان يتعرض لتعليقات كالتي أحصل عليها في صفحة جواري السينما؟ قال: ما تريده من صديقك الرّسام قد يحلّ بعضاً من أزمة صفحتك، فوجه وردة الصباح كفيلٌ بأن يجعل خفق القلوب عالياً في صفحتك كما في صفحتي.

كنتُ أوقفت الحوار مع صديقي الرسام، وهو من المختصين بالرسوم الاستشراقية حتى أنال نصيحة من الحلاج، ولهذا رجعت إلى حواري مع صديقي وهو يطلبُ مني تذكر ملامح الجارية الحلبية.

فتمنيتُ على الحلاج أن يصفها، فكان أن ردّ عليّ: كنتُ أراها بروحي، فيتشوش عند صاحبك النظر وافتراض الملامح حين يكون حديثي غيبياً يوم كنتُ أرى صورتها في حبات عنقود العنب، أنت كنتَ تراها بعينيك كلّ يوم فستحسن في نقل التفاصيل.

لهذا جمعتُ تلك الصباحات على شعرات رمشي ورسمتُ وجهاً لم ولن أنسى من ملامحه كلّ لحظة، وكلّ دمعة، وكلّ ابتسامة، وكلّ نظرة.

قال الرّسام: أحتاج من صاحبك الحلاج وصفاً.

قلت: ادخل على صفحته في الفيس بوك صديقاً، وأخبره أنك من تكلفت برسم وردة الصباح.

يقول الرّسام: دخلت عليه ووجدته وقت صلاة، فمتى انتهى نظر إلى اسمي، وفهم قصد طلبي، ثم قبل صداقتي، وقال: ما تريده هو الحسن الذي رآه قلبي، وأنت تريد الذي رآه ناظري، ومحال أن أذهب بالوصف إلى من أحسّه وملامحه أقرب إلى أن تكون بدراً يضيء، والبدر إذا يضيء حرام رسمه.

قلت: أرسلوني لأستفيد من خيالك صوبها.

قال: هذا خيال لمتعتي وما أريده مشاعاً.

قلت: هل وجهها يستدير صوب الشرق في فرحه وصوب الغرب في حزنه.

قال: وماذا يفيد هذا في الرسم؟

قلت: إلى كلّ جهة مشاعرها.

قال مبتسماً: صوفي أنت أم رسام؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: أنا لا أرسم الوجوه إلاّ عندما أقرأها.

قال: قبلت طلبك، فأنت صديقي في المعرفة والحس، وسترى أنك لن تحتاج إليّ في رسمها لأنك تكاد تعرفها.

أتاني صديقي الرّسام فرحاً ومستبشراً وهو يقول: صاحبك أصبح صاحبي، مع أنني لم أحصل عليه، ولا بوصة واحدة من ملامحها؛ لكني بفضله اقتربت من تخيلها.

وبسبب تلك الصداقة مع الحلاج كاد صاحبي ينسى مشروعنا لرسم وجه وردة الصباح، وأشعر أنه يغيب طويلاً في صفحة صاحبي، وفي يوم قبل أن أعاتبه على هروبه مما كلفته به قال: لقد رسمته.

فرحت وقلت: وجه الجارية الحلبية.

قال: لا، وجه الحلاج.

وحين ذهبت إلى صفحة معلمي وجدته قد أبدل صورة البروفايل بلوحة تحملُ كلّ تفاصيل وجه الحلاج التي عرفتها يوم كنت صبياً، ويوم أحمل له حبات المشمش، وأتعلم منه لذة الكلام.

غضبت وقلت للرسام: أنا أقدم منه في الطلب لترسم وردة الصباح.

قال: معلمك هذا سلب مني كلّ الوجوه، وأجلس وجهه فقط على أريكة الخيال، ولم يطلب مني أن أرسمه، بل أنا من طلب منه، فقال لي: هذا أنا كل ملامحي جهة الله. وهذه العبارة فصّلت لي ملامحه تفصيلاً.

قلت بغضب وانزعاج: ولا تنسى أن تغسل وجهه بالصابون كلّ يوم.

قال: سأخبره رغبتك.

قلت: إن أخبرته سيغضب ويحظرني من صفحته على الرغم من أني أنا من أتى به إلى هذا العصر.

وهكذا أُجّل رسمُ الوجه الذي تمنيته أن يكون مضيئاً، ولافتاً للنظر بين وجوه جواري شاشات السينما، وانشغل الرّسام بمنادمة الحلاج، وتفنن في رسمه، يبدل صورة البروفايل كلّ ثلاثة أيام حتى ظنّ أصدقاء الصفحة أنّ وجهَ الحلاج هو ذاته الحقيقي على الرّغم من أن عصره ليس فيه رسامو «بورتريه»، ولا كاميرات تصوير، وحين سأله بعض أصدقائه في الصفحة: إن كانت الصورة المرسومة هي وجهه الحقيقي.

ردّ عليهم: نعم ومعطرة بما أتوقعه أنه أنا. لقد رسمني ورسم معي الذي ابتهج معه.

عاتبتُ صديقي الرّسام، وشعرتُ بأنّ الصوفي الذي تكرمت عليه وجلبته إلى القرن الواحد والعشرين، وأبهرته بمواقع التواصل الاجتماعي، حتى إنه قال لي مرّة: لو كانت لي صفحة في الزّمن الذي غلّقتْ فيه مصلوباً، لهربت إليها من ظلم طغاة الحلم، واستنجدت بخمسة آلاف صديق.

وقتها قلت: وستكون هناك ثورة ثالثة غير الزّنج والقرامطة نسميها ثورة الفيسبوكيين.

قال نعم: وسلاحنا التغريدات والمنشورات، ومن يغرد سيحميه الله بدرع متين، حديثه عطرُ الكلمة وصلابته بوخ الشعر.

ومن أول هذا اليقين في قلب الحلاج اكتشفت أني جلبت إليه متغيراً جديداً، ربما سينسيه قناعاتٍ ما كان يشعر بها ويتلوها، ولكنه سيبقى أسيرَ عاطفته، وأخاف أن تُسرق صفحته، أو تُهكّر ويفقد تراثه الجديد، ولأني ما زلت وفياً لصحبته رحت أنقل على الورق كلما يكتبه لشعوري.

إنّ فقدان الصفحة سيصيبه بحزنٍ واكتئابٍ، ويُعدُّ هذا عقاباً مثل الصلب، ولهذا حذرته أن لا يثق بكلّ مَنْ يقترب إليه من أصدقاء الصفحة، وأنّ الرقم الذي أعطيته إياه ليفتح به الصفحة يسمى «الباسووورد»، ولا يعطيه أيّ واحد، وحين عرفت منه أنه مأخوذ بالود والحنين لصبيّة حلوة تعمل موظفة في أمانة عاصمة بغداد، قالت له: إنها تسعى عند مرؤوسيها لتصنع له تمثالاً قرب مرقده الذي أعيد بناؤه سنة 1905 في جانب الكرخ من مدينة بغداد، وبتصميم حديث، وأنّ بعض أصحاب الطرائق من أهل بغداد، وبعضهم أتى من السليمانية وكركوك وبخارى ومراكش، وقد فاتحوا حكومات عديدة ببناء الضريح بهندسة جميلة، لكن تلك الحكومات لم توافق؛ لأنها لا تريده أن يكون مزاراً لصوفي مختلف عليه، وأغلب المذاهب تكفره.

وأخبرته أنّ آخر الليل تحتاج إلى أنسه وعاطفته، وأنها متلهفة إليه، وأشتاق لأجيبَ عنك ومعك لتتمنى أن يعطيها مفتاح الصفحة، ومن رقة قلبه فعل لأكتشف أنّ لغة أخرى في النشر لا تشبه لغته تردُ مرّات وتنشر مرّات.

وحين سألته عنها قال: تلك من تدير الصفحة، لها من المحاسن؛ وجة متوهجّ، وأخبرتني أنها تسعى لبناء تمثالٍ لي.

فأخبرته أنّ ما فعلته غير صحيح، فهذا عالم افتراضي ليس كلّ ما يقال لك فيه صحيح، ولا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تستطيع موظفة أن تبني تمثالاً لرجلٍ الجدل قائمٌ عليه حتى الساعة. جيد أنهم رمموا ضريحك، وأعادوا بناءه، وفي مقصدهم السياحة قبل الروحانيات.

قال في إحساس الصوفي: إنه حتى عندما يخدع فإنَّ من يخدعه هو الجمال وقد رأيت صورتها.

ضحكتُ وقلت: يا حلاج! ومن قال لك إنها هي؟ وهل لم تضع في صفحتها صورة.

قال: أرسلتها لي على نحوٍ خاص.

قلت: أرني إياها.

فأراني صورة، ما إن رأيتها حتى ضحكت بصوتٍ عالٍ.

فأحس وقال: إذاً أنا مخدوع.

قلت: نعم، إنها صورة ممثلة مصرية، اسمها زبيدة ثروت، ماتت قبل عام.

قال بحزن: وكنتُ أرى في عينيها مرايا الروح سابحة في خضرة حقل.

قلت: نعم، تلك كانت عيون الممثلة المصرية.

أنجيت الحلاج من ضياع صفحته، وأبدلنا «الباسوورد»، وحظرنا صفحة البنت المفترضة، وصار يتعلم خبايا عالم «الفيس بوك»، ولا يؤمن بكلِّ قول، ولا يطلب صورة، وعلى الرغم من هذا أحسست بأنَّ الصوفي ما عاد يحتاج إليَّ، وأنه بدا يستأنس إلى الصداقات، وخصوصاً مع صديقي الرسام الذي لم يفِ بوعده، ويرسم لي وجهاً مقارباً لوجه الجارية الحلبية، فاضطررت إلى مقاطعته، وطالما حاول الحلاج أن يعقد صلحاً بيننا، إلاّ أنني كنت أعتبر ما فعله صديقي الرّسام خيانة، فيرد عليّ الحلاج: من يرسم وجهي بهذا الصدق في الملامح لا يخون.

تركتهما في ودهما الجديد، ولاحقاً ينجز من كان صديقي، وأقصد الرسام، معرّضاً كاملاً عنوانه: صوفي الفيس بوك.

لم أحضر المعرض، حتى عندما وصلت إليّ الدعوة، وعلى الرغم من هذا أتى إليّ الحلاج في منتصف الليل وجلس يحدثني عن فرحه بالمعرض والجمهور الحاضر، وكان الكثير منهم من أصدقائه على صفحة الفيس بوك، وقتها عرفت أنَّ عالم الرجل لم يعد جميلاً كما كان سابقاً، لقد لوّثته العولمة ببهرجتها الخادعة، ونسي تأملات ذلك الهيام، وما يتواصل به اليوم مع أصدقاء صفحته ما تبقى من إرث الحسّ الذي صار يتذكر منه هاجساً، وينسى آخر، وأنا أعتقد جازماً أنه

الممسوحة ضوئياً بـ CamScanner

سينسى كلّ شيء وتصبح الصفحة اسماً فقط، وهو سينشغل بالحديث عن صرعات الموضة وأغاني اليوتيوب، ولا أدري هل سيكون من عشاق أم كلثوم؟ وهذا مستبعد.

ضحكت في نفسي وأنا أتخيل حال الحلاج ينتهي مصاباً بشغف العولمة، وهو لا يعرف أن ما كان في قلبه يتفوق على كل أثين، وأنه في البدء اقترب ليقنع كلّ أصدقاء الصفحة أنه حلاجاً حقيقياً، والآن يعتقد جميعهم أنّ صاحب الصفحة ربما يتنزه كلّ مساء في مول المنصور ويرتدي بذلة إفرنجية تقليداً لأزياء «الشانيل»، وقد أرخى أجفانه لخطوات كعوب العالية، وهو في تردّد إن كان يخبرهن أنه الحلاج، أو أنه شبيه لمهند بطل المسلسلات التركية، فصدته واحدة باستهزاء وقالت له: اذهب، لتضع لعينيك عدسات زرقاء لتصير مثل مهند.

حزنت لحال صديقي، واكتشفت أنّ الرسام أيضاً قد ابتعد عنه حين شعر أنّ إغراءات العولمة أنستهُ أنه كان يصل إلى الكواكب البعيدة حتى قبل مركبات ناسا الفضائية، ومن أجله أعدت العلاقة من صديقي الرسام لنعيد الحلاج إلى ذاته، وقد فكر أن يستخرج له جوازاً ويسافر إلى بيروت ودبي وروما عملاً بموضة الهروب من صيف العراق، وهو ما يفعله الساسة والأثرياء؛ لكنهم طردوه من دائرة الجوازات، فلا اسم له ولا قيد، ولا حتى اسمه مدرج في احصاء عام 1957، ولم يكن من التبعية العثمانية، وحين أخبر ضابط الجوازات أنه من التبعية العباسية ضحك الرجل وقال له: نحن لا نستخرج جوازاً لمجنون.

يومئذٍ أتى إليّ بعد منتصف الليل وفي أجفانه دمع وقال: أنا هنا؛ ولكني لست من هنا.

قلت: لقد أتيت بك افتراضاً، وستبقى افتراضاً، وصنعت لك تكية هي صفحتك في الفيس بوك لتعيش فيها وترافقني في شغف التحولات، فتركتني.

قال: لم أتركك بل كانت لديك جواريك.

قلت: لم ينفعني فيهن جمال يتفوقُ على وردة الصباح.

قال: المخدوع أنا، شاهدت وجوهاً جميلة لمتزوجات ومراهقات وعوانس ومطلقات وأرامل ومعلمات وحتى مدرسات جامعيات، لكن أية واحدة شعرت معها بأنس ما كان يأتيني طيف وردة الصباح، وأنا أجلس في انتظار عنقود العنب الذي كانت ترسله، واليوم أردت جواز سفر فنعتوني بالمجنون وطردوني.

قلت: ولماذا ذهبت إليهم؟ أنت طيفٌ، وبإمكان الطيف أن يذهب إلى أي مكان؟

- أعرف؛ ولكني أردت أن أتجاوز فكرة أنني طيف، فقد أشعرني الفيس بوك أني حقيقيٌ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: الفيس افتراضي، والواقع ما كنت تعيشه في عصرك.

قال: ولكني اندمجت فيه وصرت منه.

قلت: أنا أعيش تبدلات الذاكرة والجسد، وأنت تعيش تبدلات الروح. أنا لديَّ قيد عام، وأب توفي في حرب الكويت، وأخ استشهد في حرب الثمانينيات، وتركت جثته في جبهة أظنُّ أنك ولدت قرب سواترها في ضفاف الأهوار يسمونها السودة والبيضة. أنت ولدت في البيضة يوم كانت من بعض سواد واسط، والآن هي من بعض سواد ميسان، وهي ذاتها من كنت فيها جندياً عباسياً أذهب إليها لأحارب الزنج.

الفصلُ السادس

قصبٌ وزلوجٌ وعرفاء فصائل

«أن تلتهم الأرض أجساد البشر فهذه هي الحرب».

«قول لجندي مجهول»

هذا ما افترضته أنا، وفي مخيلتي لحظات صعبة في حياتي. عندما أُخذت إلى الحرب مُجبراً، ولم أصل إلى عامي الثامن عشر حتى كنتُ جندياً في سرية راجلة في جيش أخي الخليفة الواثق بالله، وكانت وجهة مسير السرية حيث يتحصن الزنج في مناطق الأهوار، واستقر معسكرنا في قرية يُقال لها «البيضة»، وتجاورها قرية أخرى يُقال لها «السودة».

وحتى قبل أن أذهب إليها كانت أخبار قتلى الجيش العباسي تأتي محفلةً مع الجنود الجرحى ليقولوا: إنّ فلاناً الكرخي قُتِلَ في قرية البيضة وبكمائن الزنج، فسكنني الاسم، لأسأل الوراق الذي أشتري منه الورق عن القرية إن كان في كتبه ما يُعرّف لي المكان، وقد شعرتُ أنّ الخلافة بدأت تجند حتى الصبيان، فقال لي: أمتلك تراجم عن اليونانية استعرتها من بيت الحكمة ونسوها عندي؛ لأنّ ما بعد المأمون أهمِلَ هذا البيت، وأخذ الناس من كتبه الكثير، والمكان الذي تقصده كان، يا بني، كما مدون هنا (كان مسرحاً لمعركة نهر دجلة جرى فيها اشتباكٌ بين ديادوتشي سلوقس وجنرال أنتيجونيد نيكانور على الضفة الجنوبية لنهر دجلة عام 311 قبل الميلاد.

كان نيكانور في طريقه لاستعادة مدينة بابل من سلوقس؛ لكنه هُزم عندما فاجأه سلوقس بالهجوم على معسكره في أثناء الليل، مما أجبر أنتيغونوس على وقف الأعمال العدائية مع الديادوتشي الآخر، (بطليموس، كاساندر وليسيماخوس) لتركيز جهوده على استعادة مدينة بابل بنفسه.)

مع الوصف الغامض لتلك المعركة صرت أستعيد مكامن الخوف والقلق من حياتي التي ستذهب إلى فصل بعيد لم أكن أرى فيه خيال وجه الجارية الحلبية، بل أنا وسيف قاتلَ به غيري، ولا أحسن استخدامه، وعليّ أن أحذر أنا وستة أنفار، ونختبئ في أكمة القصب عن الزنج من الذين يختبئون على شكل كمائن لينقضوا على معسكرنا في الليل.

ويوم قالوا لنا: إنّ هذه القرية التي نعسكر قربها اسمها البيضة، وهم من سدنة ضريح لنبي توراتي اسمه العزير، بُني من طوب الطين، وقبته من حجر كلسي، جلبوه من صوب منطقة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الأحواز التي تجلبه من جبال بلاد فارس القريبة منها.

ولاحقاً أخي القادم من أزمنة المستقبل يموتُ هنا، وقد زرته يوماً وتذكرت رحى معارك الأزل أمس بين اليونان والفرس، وجُلدتُ مثل أخي لأصد كمائن وغارات الزّنج القادمة من عمق الأهوار التي بدأت تؤذي جيش الواثق العباسي كثيراً، وقد قرأت عن المكان غير ما قرأته عند الوراق، فقد كان المكان يوم كان أخي جندياً فيه هو قاطع العمليات يمتدُ من القرنة جنوباً، وتحديداً من جسر السويب الذي يعدُ حداً فاصلاً مع الفيلق الثالث، ويمتدُ شمالاً إلى الفيلق الرّابع عند سلف مريبي وسلف أبو حديدة شرق الكحلاء، وشمال هور الحويزة عند بركة السودة وبركة البيضة، ويلفظ حرف «ك» كحرف «G»، وهذه البقع غير مغطاة بالبردي والقصب لعمق المياه فيها، وقربه من بدايات هور السناف ناحية المشرح، وكان هذا القاطع يضم هور الحويزة الذي يشكل أكثر من 60% منه مع شريط من اليابسة يمتدُ ما بين نهر دجلة وحافات الهور، تتسع المسافة بين الهور ونهر دجلة ضمن منطقة قلعة صالح والقرنة، وتضيق في الوسط خصوصاً ما بين العزير ودورة حريبة التي تقع شمال القرنة لمسافة قرابة2500م.

وأظنُ أنّ الحلاج ولدَ في بركة البيضة، وقد ثقفوها لغة ولفظاً وسموها البيضاء، ومتى نجاني الله من محنة أن يكون سيف واحد من ثائري الزّنج مخترقاً خاصرتي وجدتُ الحلاج في جلسته ذاتها، وتسامرتُ معه عن المكان، فأحبه حتى دون أن يتذكر منه شيئاً، ولكنه تمنى زيارته والجلوس عند دكة ضريح العزير، فكأنه يريد معه وصلاً.

بين حربين أكون أنا الآن؛ واحدة نجوت منها حين أصبت بنبلة زنجي كَمِنَ لنا ونحن نحاول صيد سمكة من مياه الأهوار بعد أن شحّ التموين القادم من بغداد، وأجبرنا أهل قرية البيضة أن يعطونا كلّ يوم ستين بيضة من دجاجهم، وأهل قرية السودة يخبزون لنا مئة رغيف كلّ يوم، فكان هذا فوق طاقتهم؛ لكن آمر سريتنا كان قاسياً جداً، وذات صباح تفاجأنا بأن أهل القرية هاجروا منها صوب القرنة، وحين سمعني قائد سريتنا وأنا أقول: إنهم ذهبوا إلى بلدة جدنا ليحميهم.

قال: يا مغفل قرية آدم الآن يحتلها الزّنج!

قلتُ في نفسي: الزّنج أيضاً كان آدم والدهم.

في اليوم الثاني أتت النبلة إلى قدمي، ومتى وأعادوني في قافلة دواب بها بريد وموقف المعركة مع الزّنج إلى بغداد، فنجوت منها، لكن أخي في العصر الآخر لم ينجُ منها، وكانت جبهة الحرب التي أخذ إليها جندياً احتياطياً من مواليد 1953 مقر سرية كيمائية على ضفاف الأهوار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقرب قرية البيضة والسودة.

ومرّة تأخرت الإجازات، وكنتُ لم أزل شاباً لم يدعوا من هم في سني إلى الجيش. اشتعلت المعارك في هذا المكان الذي يطلقون عليه قاطع شرق دجلة، فقلقت أمي على أخي وأجبرتني أن أذهب لأطمئن عليه، وقد تأخرت الإجازات ستين يوماً ونحيبها يزداد كل يوم.

فقلتُ لها: لقد نجوت من جحيم المكان ذات يوم، وسينجو أخي من جحيمه أيضاً.

ولأنها لا تعرف تبدلات الأزمنة في حياتي لم تفهم شيئاً فقالت: إذا لم تذهب أنت سأذهب أنا.

وقتئذٍ لم أكن أفكرُ في جلب الحلاج إلى هذا العالم؛ إذ لم يكن هناك فيسبوك، وكلُّ الذي أعرفه أنني ذات طيف كنت أعيش في عصرٍ غير هذا العصر، ومع اقتراب سنواتي من الثلاثين أتت العولمة واكتشفت كثيراً عن ذكريات أزمنة عشتها، وأني رُميت من نطفتين مختلفين ولزمنين، ولكن أبي وأمي كادا يكونان متشابهين، حيث الفقر هو ذاته، الفرق أنّ والدي العباسي لم يكن يعرف والدي في القرن العشرين، وأمي العباسية كذلك، وحدي أنا شعرت مع نضوج عقلي وأحلامي أني كنت أعيشُ عصرين، ويوم ذهبت لأطمئن على أخي، وكان جندياً في سرية كيميائية في الفرقة المدرعة العاشرة التي امتدت على طول ساتر ترابي من مقام لسيد علوي يسمونه سيد عبد الله، وحتى لسان عجيردة وقرية البيضة والسودة.

سافرتُ إلى مدينة العمارة، ومنها ركبتُ سيارة أخرى إلى قضاء قلعة صالح، وقد استعدتُ أخيلة مفاجئة عند تلك المدينة؛ حيث أتت تفاصيل خدمة الأولى في المكان، وكانت قرية كبيرة بيوتها من الطين والقصب، يشربون من ماء دجلة، وفي ضواحيها بعد عدة فراسخ تبدأ الأهوار وتنتشر قرى مربي الجواميس، ويطلقون عليهم تسمية المعدان، وهذا المكان كان نقطة التذكر في أنني كنتُ هنا ذات يوم، ومنه كان عليّ أن أذهب إلى وحدة أخي، وأن أنتظر سيارة الأرزاق التابعة لوحدته؛ لأنّ شدة المعارك منعت سير العجلات المدنية التي كانت تنقلُ المسافرين بين بغداد والبصرة عن طريق ميسان.

وحين وصلت السيارة إلى المكان ونزلت، وقد كانت وحدة أخي العسكرية تقعُ على ضفاف دجلة وليس بعيداً عنها مرقد النبي العزير، تدافعت ذكريات الزمن القديم لأتذكر اللحظة التي حملت فيها على راحلة بعير يوم جُرحت من نبلة أطلقها زنجي من قوسه، وقد أشفق عليّ آمر السرية؛ لأنه يعرف أبي وقال: ترفقوا به ولا تتركوه في واسط، أو أي مكان، حين تسوء حالته أوصلوه إلى بغداد. وأتذكر أني عندما تحرك الظعن تلامست أجفاني مع قبة النبي، وقد تجمع عند بوابته نفرٌ من المعدان لأطلب منه الشفاعة لأصل سالماً وأخبره أنّ لدي صديقاً صوفياً

يُدعى الحلاج، كان يتمنى أن يكون هنا، وقد تمنى لقاءه حين أخبرته أنني ذاهب لأكون جندياً في مكان يقال: إنه ولد فيه، وقرب المكان ضريح لنبي توراتي تؤمُّ إلى بركته كلُّ الطوائف والديانات.

وأظنُّ أن النبي حقق لي الشفاعة، وأوصل وصل بأمان إلى بغداد، وقد خفَّ الجرح الذي أتحسسه الآن، وأنا أقف متأملاً المكان الذي توجد فيه سرية أخي الكيميائية.

قضيتُ مع أخي ساعتين، وأكلت معه من قصعة الجيش، وطلبت إليه كما أوصت والدتي أن يشربَ من دمعها الذي أرسلتهُ معي بقطارة ليشعرَ أنَّ قلبها وانتظارها سيظلان معه لحين عودته، فشربه، وقد دمعت عيناه أيضاً، وجندي آخر من رفاقه بكى أيضاً وهو يقول: «هنيالك»، أنا دموع والدتي مدفونة في قبر قرب ضريح علي في النجف.

لاحقاً بعد أشهر، رفيق أخي الذي بكى لحق أمه، وأخي لحقه بعد شهر.

وأنا أزور أخي يتملكني المكان بحنين غامض انفتحت مغاليق الذكرى فيه متى رأيت قبة النبي، وقد تغيّر عمرانه وجُدِّدت قبته، والمعدان الذين كانوا يتجمعون عند بابه لم يتواجدوا الآن؛ لأنَّ مدافع الحرب هجَّرتهم، والذين يزورونه الآن أغلبهم من الألوية المنتشرة على ضفاف الأهوار من ناحية المشرح، وحتى أهوار مجنون وأطراف بحيرة الأسماك، كلهم كانوا يعرفون أن هذه الحرب جحيمٌ لا يطاق، وأغلبهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل، مجرد أنه أنهى كليته أو رسب في الإعدادية لسنتين متتاليتين، أو كان عاطلاً وحان سوقه إلى هنا ليدافع عن سمك الأهوار وبساتين ميسان كما تقول بيانات الحرب.

في هذا الوقت طلب فيه أخي أن أحمل معي دمعتين من مقلة شوقه لأمي، وقال بطلب غريب: حاول أن تجعلهما يسيلان على خدها قبل أن تذرف دموعها، وحين سألته، كان ردّه غريباً وفنتازياً وسريالياً أيضاً عندما قال: إن التقت دموعي بدموع أمي على خدها سنموت معاً في لحظة واحدة.

اهتزَّ بدني لتلك النبوءة الغريبة، ولهذا سأحاول أن أكون حذراً ولا أجعل دموع أخي تلتقي بدموع أمي على خدها، وقد فعلتُ ذلك في عودتي إليها، ولكن أمي التي لم تحبس فرحها بكت في اللحظة التي وضعت قطرتي دمع أخي على خدها، والتقت الدموع وفيها حقيقة نبوءة تحققت بعد أربعة أشهر عندما أتوا بنعش أخي شهيداً من جبهة شرق دجلة، وتحديداً من قرية البيضاء. استقبلت أمي نعش أخي وحضنته وحين أرادوا إزاحتها عن النعش حتى يُصلوا عليه وجدوها جثة هامدة، فصلّوا على الجثتين، وكنتُ أعرف أنها ستموت في تلك اللحظة، فقد كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخي واثقاً من نبوءته.

يوم مات أخي شهيداً جاءت إليّ على هيئةِ أطياف كاملة أزمنةٌ كنت قد عشتها، ومعها لذة أني بعد هزيمة الزنج وشفائي من جرحي كنت أمتع الحلاج بوصف مكان ولادته المفترض، ولاحقاً عرفتُ أن البيضاء التي ولد فيها الحلاج هي بيضاء واسط الحجاج، وليس بيضاء قرى المعدان، على الرغم من أنّ لهفته كبيرة إلى امتلاك قناعة ما كنتُ أذكره به أنه وُلِدَ هناك قرب غابات من القصب وقرى من الطين، ولكنه لحظة ما انتفض الأميّ وقال: إنّ تلك الأمكنة تخلق شعراء ومغنين ولا تخلق متصوفين.

كان عليّ أن أقتنع بكلامه، ومع هذا دعوته أن يغادر تكيته شهراً لنكون هناك؛ أنا لأستعيد جنديتي في جيش الواثق بالله، وهو يستعيد مكاناً افترضته أنا بتشابه الأسماء وقرب الجغرافية بين المكانين أنه ولد فيه.

قال: أظن أنّ مفارقة عنقود العنب من نظرة وكرم وردة الصباح ظلماً لمتعة الانتظار.

ولكني أخبرته: من اليوم لم يعد هناك عنقود عنب، فقد بيعت وردة الصباح إلى شهبندر التجار، وعنقود العنب ستطعم به مالكها الجديد.

لحظتها حزنَ وأصابته كآبة النظرة والصفنة، ولم يسترح من هذا الحرمان لحبات العنب إلاّ بعد ساعات، فتركته وقتاً، وحين عدتُ إليه وجدته قد وافق على أن يصحبني إلى المكان الذي خدمت فيه جنديتي في جيش الواثق بالله، وخدم فيه أخي واستشهد في الحرب العراقية الإيرانية.

ذهبنا إلى الجنوب، وأعرف أن أغلب الصوفيين شماليون، وأن تكاياهم نادرة في جهة الجنوب؛ لكن الحلاج ولد في أمكنة قريبة، وعندما كان مرورنا في واسط لم يجذبه من المكان شيء، وكانت دجلة تعيش فيضاً ربيعياً أغرق كلُ المزارع القريبة، فقال لي: اسأل إنْ كانت ثمة قرية في ضواحي واسط اسمها البيضاء.

فقلت: حاذق مثلك في الكلام وتخيل الصور لا يتذكر مكان ولادته وصباه!

فأنكر في المكان كلُ شيء، وأدركتُ ما كنتُ قد قرأته وسأقرأه لاحقاً عن حسبه ونسبه، وأحببت أن أطلعه على ما كتبوه عن ولادته وحياته قبل أن يحط الرّحال في بغداد، فسألني إن كان هذا يكتبه من عاصروني وأحبوني، أم من عاصروني وكرهوني، قلت له: أظنها كتابات محايدة، فأغلب من كتب عن ولادتك ليس من أهل بغداد؛ وإنما من المؤرخين الثقات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: أعطني ما تحدثوا به عن طفولتي وصباي، فأظهرت له قرطاساً فيه ما يطلق عليه اليوم السيرة الذاتية وفيها ما يخص ولادته:

أنك ولدت عام 244 هجرية الموافق 858 ميلادية في بلدة «تور» في الشمال الشرقي من مدينة البيضاء، والبيضاء مدينة مشهورة في فارس، وسميت بهذه الاسم لوجود قلعة تُرى من بعيد ويُرى بياضها.

وتقول دائرة المعارف الإسلامية: إن نسبك يصعد به إلى أبي أيوب الأنصاري (الصحابي الجليل)، هذا يعني أنك عربي.

ورواية أخرى تقول: إنك حفيدٌ لمجوسي من أبناء فارس.

وابن كثير يعرفك: ((هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث، ويقال: إن أبا عبد الله كان جدّه مجوسياً من أهل فارس من بلدة البيضاء)).

ويقول لاحقاً مستشرق فرنسي اسمه ماسنيون، وهو من أنصفك كثيراً:

((إن البقعة التي ولد فيها كانت من أعظم مناطق النسيج في الإمبراطورية الإسلامية، وإنّ والده كان من عمال النسيج، ولهذا سمي حلاجاً))، وهو استنتاج فكري لعدم وجود الشاهد والدليل. وهناك رواية ابن خلكان في «وَفَيات الأعيان» أنه ساعد رجلاً من واسط... (قطان) في حلج قطنه، وعندما عاد الرّجل وجد أنّ كلّ قطنه محلوجاً وكان 24 ألف رطل.

ذهل الرّجل وأطلق اسم الحلاج على الحسين بن منصور ولازمته هذه الكنية طوال حياته.

ابن كثير في الرواية نفسها يقول: إنّ أهل الأهواز أطلقوا عليه هذه التسمية؛ لأنه كان يكاشفهم بما في قلوبهم فسموه (حلاج الأسرار).

قال: مختلفون على ولادتي ومتفقون على صلبي! والعارف الوحيد من أين أنا هو أنا.

قلت: احسمها؟

قال: إنْ حسمتُها فلن يفترض خيالك أني مولود على ضفاف الأهوار، فتفقد من متعة ما أردت فيه أن توثق سردك وتذهب إلى أزمنة قادمة، وأكون أنا فيها معك.

قلت: ليس ثمة خيبة في افتراض أن لك مكانَ ولادة آخر مع تأويلات الأمكنة والانتماء؛ لكن كونك عربياً هو أضعفهم، لهذا فأنت حتى في استحالة هذا الافتراض لن تكون مولوداً في القرية التي خدمت أنا فيها جنديتي في أثناء محاربة الزّنج، وفيما بعد يستشهد قربها أخي، وأشعر أني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجبره على تقبل هذا المكان لولادته، ولكني كما أحسست أنه قبل أن يذهب إلى هناك ليعرف شيئاً عن بهجة مكان فيه نبي.

أسمعه يقول: ليت في المكان حسناوات.

قلت: موجودات بطعم «القيمر» والماء الأخضر لكنهن لا يحسنّ الغناء سوى جمال الصفير والمناداة وراء جواميسهن.

ضحك وقال: هذا ليس واحة للتخيل والطيران بأجنحة الشوق إلى الذات، والمكان الذي لا يجلب ذاتاً لذات تأنس معها وتديم الوصل هو مكان قاحل. إني لأتعجب كيف اختار الكاهن عزرا الكاتب مكان موته هناك.

قلت: الموت لا ينتظر جنائن الأمكنة، فأكثر موتى التأريخ البشري هي ساحات الحروب. وسأغيظك، يا حلاج، إن اختار كارهك الشيخ لك موتاً، فسيصلبك في مكان جلوسك، ومزبلة السوق لا تبعد عنه سوى أمتار قليلة.

قال: هذا المكان منعزل عن كلّ ما حوله، فلا ضير بموت فيه.

تذكرتُ موت أخي القادم وقلت: كان موته منعزلاً عن دموع أمي، فتلك حالة إنسانية مكتئبة، وأنت أيضاً سيكون موتك كئيباً وموتك قرب مكان فضلات السوق.

انتفض وقال: ربما لن أكمل معك السفر إلى الأهوار ما دمت تصرّ على عفونة موتي، وأنا الذي أشمّ في العطر صورة الهوى حتى لو وضعوني في تنور خبز.

قلت: أنتم تهربون من حقائق الوقائع، ومع هذا لك عندي مودة، ولي قصة معك كانت فيها وردة الصباح تقول لي: خذ إليه عنقود العنب حتى لا يشغله طيف آخر عن وجهي.

ومثل سكران صار يهزّ رأسه، وكنا على باب جامع في واسط، وقد حمل إلينا أحد المتصدقين إناءً فيه هريسة كان قد طبخها نذراً لروح الحسين شهيد كربلاء، ومتى عرف أنها هريسة عاشوراء امتنع أن يمدّ يده، فسألته إن كان عنقود العنب الذي تبعثه الجارية الحلبية آتياً من بساتين كربلاء فهل تأكله؟ فلم يجب؛ لكنه رفع ماعون الهريسة إلى فمه وغَرفةً كله، وعاد ليهزّ برأسه، فسألته: هل هذا بسبب لذة طعم الهريسة؟

قال: نعم الهريسة. وتذكر خيال وجهها.

هذا التذكر عاشه بعيداً عني، فلم يشعر بما انتبة إليه أهل واسط، وهم لم يتعودوا بعد على

رؤية الدراويش؛ بل تعودوا على أن تكون بلدتهم مكاناً لاستراحة العساكر، وسقايتها وبيع المؤن لهم، وهم يستقرون عندها في الطريق بين بغداد والأهوار حيث تحصن الزنج، ومتى شاهدوا الحلاج يهزُّ رأسه حسبوه شحاذاً ومجنوناً وأنا ابنه، فصاروا يرمون إلينا قروشاً لم تكن ذات أصل عباسي؛ بل هي مسكوكة في زمن الحجاج، فانتبه إليها وقال لي: لا تقبلها فهي مصبوغة بالدم. فأعدتها إليهم، فظنوا أن في هذا عفة وكبرياء، وأنَّ الحلاج ربما كان تاجراً وسلبت قافلته في جهة النعمانية، حيث تكمن العصابات وتسلب القوافل، فذهب بعضهم إلى بيته ليعود إلينا بملابس نظيفة، وتلك أيضاً لم يرغب بها الحلاج؛ ولكنه قال لي: لا تعذها، فإن فعلت يحسبونا بَطِرين، فتُقطع عنا الهريسة، ونموت من الجوع.

خلال يومين قبل أن نشدَّ الرِّحال صوب الأهوار، وقد اقتنعت من كلامه أنه لم يكن مولوداً هنا، وأنَّ احتمال أن يكون مولوداً في بيضاء بلاد فارس بات الأقرب، ولكني أتيت إلى حقيقة لاحقة أن عمومَ أهل البيضاء كانوا من المذهب الشيعي، فهل أصبح الحلاج سنياً حين حط الرِّحال في بغداد؟ حين رأيته يلتهم ماعون الهريسة شعرت بأن روحه الشيعية استفاقت معه؛ لكنه دائماً كان يقول لي: مذهبي هو الذي يعتلي العرش ومودتي إليه.

وقتئذ لم أذكّره بانتمائه المذهبي؛ لأني أدرك أنه أزاح المذاهب من رأسه، وعرفت جهة هواه ومبادئه، وحين شعر بقناعتي صار يبتسم، وهو يعرف مذهبي؛ لكنه عرف حواسي وعقلي أني معجب بروحه في شطحتها، وليس بالضرورة أن تسكنني موهبة الشوق الصوفي فأصبح مثله، وقال لي: أنا أعزُّك لأنك لا تسأل ما يريده عقلك؛ بل ما سأله روحك وباطنك، وهنا تكمنُ الأسئلة الحقيقية، وأنك كنت مرسالاً جميلاً بين لهفتي وحبات عنقود العنب، ولم تتخلَّ عن مودتك وعطفك عليَّ حتى حين عدتُ جريحاً من حرب الزَّنج، ولهذا قبلت أن أعود معك إلى مكان حربك، وما افترضته أني وُلِدت في هذا المكان، فلنحرك حمارينا صوب الأهوار صباح الغد.

الفصلُ السابع

محطتنا الأولى

علي الغربي

نعم، لقد سافرنا بحمارين، كانا متروكين في زريبة يمتلكها ربُّ عملي، حيث يضع فيها أباعر قافلته وخيولها، وأحسّ بهما قد تجحشا وكبرا، ولم يعد يصلحان لحمل صناديق أمتعة الجواري، وبعد آخر سفرة لهما من دمشق شعر بوهنهما وعرضهما مجاناً، في الوقت الذي اقتنع فيه الحلاج بسفرة الأهوار، فأخذتهما، وكانا مطيعين في السفر؛ لأنّ الحلاج كان نحيفاً ومثله أنا. أكرمناهما بالرّاحة الدائمة في الطريق وببرسيم الحقول التي نمرُّ بها.

وفي كلّ مرّة كان الحلاج يخاطب حماره: أن تحمل جارية حسنة وملابسها المعطرة، فهو الفخر ذاته أن تحمل صوفياً إلى مقصده، وحين أشاهد الحمار يهزُّ رأسه، فأشعر أنه غير مقتنع بكلام الحلاج، وأنّ زمن حمل الثياب المعطرة هو الأجمل بالنسبة إليه.

وها هما يتحركان الآن، ونحن معهما، وقد اخترقنا السوق وعيون أهل واسط تودّعنا، وهو يردُّ عليهم بنظرة تقول: لم أكن مولوداً في بيضائكم، فبيضائي التي ولدت في ها مغناة ومشتهاة ومرفلة بالقصائد، ولولا عصيدة الهريسة اللذيذة لقلت لكم: بلد صك فيها الحجاج نقوده ووضع أسسها، لا يهنأ لي فيها عيش، ولكنكم انتصرتم على ضجري من هذا المكان، وأتيتم لي بمكرمة من عاشوراء، فتذكرت أنّ لطفولتي وصباي بلدةً تقام فيها مواكب العزاء في كلّ محرم، وربما ضرب تلك الطبول وهي تتساقط دمعاً ودماً هو من قرب عندي هاجس الهيام؛ لكنني شطحت فيه، فبدلاً من أن أكون نصير الحسين أصبحت نصير الشوق إلى هالة الضوء وترقب سير خطواته في بدني.

بسيرٍ بطيء مشينا، وشعرتُ بوحشة الطريق بين بطائح ميسان وأرض واسط، حيث تركنا حقول الطريق التي كانت تُنعش بطني حمارينا، وتصبح الأرض قاحلةً في بعض مسافاتها، وما نراه سوى قرى تنتشر بصمت على ضفاف دجلة في جانب اليمين وفي اليسار أرض جرداء لا يظهر منها سوى قمر أسود لجبال بعيدة تقع في أرض فارس المحاذية لامتداد الطريق.

قلت له: تلك جهة ولادتك.

قال: دهلران، كنتُ قد قضيتُ في كهوفها بعض الشهور عزلتي، ولكنها ليست بلادي. لو تذهب

شرقاً وجنوباً عنها ستقع في أرض الأحواز وفيها كسبت اللقب.

قلت: قيل عنك: إنك تحلج الخيوط جيداً، وتصنع من القماش أنواعاً؛ ولكن ثوبك لم يذق من الماء غسيلاً لسنوات، هل تشعر أن هذا تطرفاً؟

قال: ليس كلُّ ما تمتهنه يسكن قلبك، وما سكن قلبي امتهان العشق.

قلت: اعذرني يا حلاج. ما يُعرَفُ في العاشق بريقٌ بعض ما عليه، وأنت لا بريق عليك سوى التراب، والأطيان يابسة على أطراف عباءتك. لا أظنُّ واحدة ستنظر إليك بعاطفة، وعاطفة صاحبة عنقود العنب كانت تنظر إليك برأفتها.

انتفض وقال: تلك الرأفة هي من تساهم في زرع الفتنة.

قلت: يا رجل! أي فتنة وهي بعد كلِّ فصل وَتَرٍ من عودها الناعس تذهب بشفتيها إلى كأس مالكها وتشاركه الثمالة والوسادة.

قال: وأنا متعتي في تخيل هذا المنظر.

قلت: وهذا الذي تقول: إنه يمتلك الغيب وتوده.

قال: سيسامحني إن غفلت عنه لحظةً وفاءٍ لكرم صاحبة حبة المشمش والخوخ وعنقود العنب.

لم تكن القِممُ الشاحبة للجبال المرسومة في أفق جهة الشرق صمتاً غريباً، فأعرف أنَّ رحى حروب كثيرة ستداُر هناك، وأخبره أيضاً أنَّ جبالَ دهلران هي موطنٌ أزليٌ لجماعة يسمونهم الصابئة المندائيين يقتربُ في حياتهم وسلوكهم شيءٌ من طباع الصوفية؛ لكنهم عمليون ويشتغلون في صياغة الذهب وصناعة أدوات الحصاد، والكثير منهم يمتهنُ الطبَّ وتخيل النبوءة؛ أي أنَّ الكثير منهم عرّافون.

قال: أعرفهم، وقد خالطت بعضاً منهم في بغداد.

يوم خدمت جندياً في جيش الواثق بالله، شاهدتُ قرى عند حواف الأنهار لبشر يرتدون الثياب البيضاء ويقتربون بسكنهم من قرى المعدان، ولكنهم لا يدفعون بيوتهم إلى عمق غابات القصب والماء كما المعدان، وليس لديهم دواب، ويفضلون أن يكونوا قريبين من ضفاف دجلة.

وحين سألت عنهم المعدان قالوا عنهم: إنهم من غير ملّة، ولهم غير نبينا؛ ولكنهم مسالمون، ويوم أتى الزّنج ليقتحموا الأهوار احتموا بنا؛ لأنَّ الزّنج متى رأوا رجالاً بسحنة بيضاء حسبوهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجاراً وموالين لبني العباس؛ لهذا حين أتى الواثق بعسكره اطمأنت قلوبهم، وتبرعوا بتصليح الرماح والسيف والدروع مجاناً، فحدادة أسلحة الحرب بعضٌ من مهنهم، مع أنهم مسالمون ولا يحبون الحرب، وليس لهم جنديٌ فيها.

قال الحلاج: عرفت منهم في بغداد خطاطاً، والمهن الأخرى لا تجلب فضولاً لدى الصوفيين، صاحبته زمناً، وحين عرفت أنه يخط رقاعاً للخليفة بماء الذهب تركته؛ لأني أريد فقط مصاحبة الذي يخط بماء الرُّوح.

قلت: أنا خَبِرتُهم وعرفتُهم ووجدتهم هادئين في الطباع، ومصغين في السماع.

قال: وهذه الصفة لنا.

قلت: وهم الأقرب عندما اقتربتُ منهم ليعالجوني من جرحي قبل أن تأتي القافلة وتنقلني إلى بغداد، وأفهمني حكيمهم أنهم غنوصيون، وأردت أن أسألك عنهم لكنني نسيت، ولاحقاً في كتب بيت الحكمة عند الوراق الذي أشتري منه الورق عرفتُ أنها من أفكار الديانات القديمة ومعارفها التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين: الأول والثاني الميلاديين، وبحسب تفسيرهم للتوراة، عدَّ الغنوصيون أو (العرفانيون) أنَّ الكونَ الماديَّ هو انبثاق من الرَّب الأعلى الذي وضع الشعلة الإلهية في صلب الجسد البشري، ويمكن تحرير هذه الشعلة أو إطلاقها عن طريق معرفتها؛ أي «أغنصتها».

قال: لهذا حين عرفت الخطاط في بغداد، وشاهدت كيف يميلُ بحرفه إلى جهة أجفاني حينما أراقبه وهو يكتبُ، قلت له: هل في ديانتكم إزاحة صوب جهة المعرفة التي تحسُّ ولا ترى.

قال: لدينا ملاك يأتي بها إلينا، وهذا الملاك مثل جبرائيل لديه أجنحة، وفي كلِّ وقت رداؤه أبيض، وكل الذين يعتقدون بسحر حضوره تبهجهم الصفنة، ولا يتأخرون عن مودة الماء والتعميد به.

قلتُ له وقتئذٍ: إذاً، أنتم قريبون منا، والفرق أنَّ الماء قريب لأجسادكم، وقريب منا ولكن لا نراه، وهو يغسلنا دون حاجةٍ إلى أن يلامس أبداننا.

قلتُ: وكيف لا ترونه ودجلة لا تبعد عن دكتك سوى أمتار؟!

قال: النظر ببصائر الرّوح، ونحن نرى الذي نحسّه فقط.

قلت: وإن عطشت؟!

قال: نشربُ؛ ولكن دون أن نتخيل ما نشربه؛ أي قضاء حاجة كي تقف في أحشائنا الأمعاء ويتوقف في أوردتنا الدم.

قلتُ: ولكن الكتاب يقول: «وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حي».

قال: نعم، جعل. وبعد ذلك ذهب الحي ليفتش عن الرقي وهو عطِش، وتلك هي الحركة السامية صوب إدراك الأشياء.

قلت: كيف تهوى الرّوح المندائية إذاً، وأنت لا تتقابل معها في فهم ضرورة الماء؟!

قال: أهواها من خلال حرف الخطاط، وكنت أشعرُ أنه يُعمِّدُ نفسه بمعنى ما يكتبه، وقد خالف ذلك حين أصبح يُعمِّدُ تلك الحروف بماء الذهب فجفلت عنه.

قلت: ولكننا متى وصلنا الأهوار ستتعرف عليهم، ونحط رحالنا عندهم؛ لأنهم بعض محطاتنا في الطريق.

سارت راحلتنا، وكنا نسير بمحاذاة دجلة، ومتى سألته: إن كنت قد شاهدت تلك الأمكنة، فالبيضاء يفترض أن تكون هنا، يمدُّ نظراً صوب بلاد فارس، ويستنشق هواءً بعيداً، فأعرف أننا ذاهبون إلى مكان لا ينتمي إليه، ولكنه أحبَّ أن يبتعد عن مضايقة الشيخ البغدادي، وهو يرمي عليه حججاً واتهامات وأسئلة حتى ينقضَّ عليه ويقوده إلى الصلب، لهذا ظلّ يترنَّمُ بالكلام من أجل نسيانِ تصحّر الطريق عندما هبّت علينا عجاجةُ رمل من جهة على حدود فارس تدعى جلات.

لاحقاً هذا المكان يطلق عليه الجنود وكرَ العقارب؛ لأنها تخرج من الأرض وتشارك الجنود نومهم، فإمّا أن تلدغهم، وإما يصيبها النعاس، وأعرف اثنين من أبناء شارعنا أتيا من جبهة جلات مقتولين؛ ليس بشظية مدفع أو رصاصة قناص، بل من لدغة عقرب، لهذا تمنيتُ عليه أن نمشي أسرع براحلتينا، فقال متعة التراب في هيجانه يذكرك بأنَّ الأرض تتحرّك بسرعة وأنت الثابت في مكانك تتخيل الأشياء تطيرُ في فضاء جنائن الرّوح، في النهاية لست مِمَّن يهيلون عليها التراب، بل يغرقونك بالنور.

وحين أتحدث عن البهجة التي ستصادفنا،

كان فرح أبي منصور الحلاج يقول: حين تكون استراحتنا في ضريح وليٍّ، أو ابن إمام، وتلك الأبنية تنتشر على طول ضفاف دجلة بين واسط وبطائح الأهوار، وغالباً ما كان الضريح يتفيأ ببعض نخلات، وبعض الأضرحة يكون لها سقاية، وفي بستان كبير، وتتناوب على إدارة الضريح

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أناس قدماء من سكان المنطقة، أما إذا كان قبراً أو مغتسلاً تتناوب عوائل القرية على خدمة المكان وزواره، وأغلبهم من أهل القرى القريبة والعابرين.

وكان كلما حططنا الرّحال بمزار يسأل عن اسم صاحب الضريح، وأغلبهم يعود نسبهم إلى أئمة أهل البيت، وبعضهم ماتوا وهم صبيان، ولم يكونوا من أهل تلك الديار، فيسألني إن كنتُ أعرف سبب موتهم هنا، وإقامة الأضرحة تخليداً لبقعة ماتوا فيها.

فأجيبه: لا أعرف.

فيضع لي تفسيراً غريباً ولكنه منطقي.

قال لي: إنّ هؤلاء أبناء وأحفاد الأئمة الذين ورثوا جدّهم علياً (ع) العصمة والإفتاء بالدين والمذهب الشيعي، وكان خلفاء بني أمية وبني العباس حين يتخلصون من إمام يبحثون عن نسله حتى يقطعوه؛ فلا يبقى من الوراثة في العصمة شيء؛ لأنّ الإمام كان معارضاً، لهذا يهرب الأبناء والأحفاد، وليس لهم مأوى في الهروب سوى بلاد فارس؛ لأنّ التشيع فيها يحميهم، وبسبب طول الطريق ومشقته وخطورته كان بعضهم يموت في تلك الأمكنة ويُدفن.

وجدتُ كلامه معقولاً، ومن لحظتها أصبحت أصدق بأنساب أصحاب تلك المراقد والأضرحة، وحين سألته: هل بعض الأضرحة تعود إلى أنبياء؟

قال لي: نعم، وأظنّ أنهم كانوا هنا أيضاً.

أكملنا المسير وأنا أعرف أنّ صاحبي يطيل الاستراحة، وليس ذلك لعلةٍ في البدن، أو تقدم في العمر؛ إنما لإراحة دابته، وقد أخبرني أنّ الاشفاق على من يعينك في سفرك هو في إطعامه وتقليل خطوة سيره، وتخفيف الأثقال عن ظهره، وقال: كذا المسافر من البشر، كل طعامه خبزة وشربة، فيقترب إليه القصد قبل أن تقترب أقدامه من القصد، وعرفتُ أنّ القصد هو المكان الذي نريد الوصول إليه، وعرفتُ منه في صحبة الطريق أنّ المسافات القاحلة تعيدك إلى نفسك، والمسافات المخضرة قد تلهيك عن صفاء التفكير، لهذا يقول لي: لا تطل الجلوس تحت ظلّ نخلة، اترك للأرض القاحلة تفتح في رأسك نافذة التفكير إلى الشيء.

وحين أسأله ما هو الشيء؟

يقول: النور في مخبئه وعلنه.

قلت: هو نور إن اختبأ وإن ظهر!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: إنِ اختبأ صنع الليل، فتنام الناس ويتوقف الذهن عن التأمل، وإن ظهر كان نهاراً وسمع الناس ما أسبّح لأجله.

من كلامه شعرتُ أنّ الطريق مع الصوفي يختصر فراسخه، ونسيت أني سأستذكر عند مكان نذهب إليه موتَ أخي، وآلام جرحي، وقد تأمن الطريق بعد أن هُزِمَ الزّنج، أشعر أنا ومعلمي أننا نبحث عن بهجة مكان وذكرى. الأولى خدمتي في جندية أخي ودمعته المحمولة بتابوت من قرية البيضاء، والثانية مكان افترضته أنا مهداً لولادته، فلم يكترث لافتراضي؛ لكنه قَبِلَ أن يذهب معي وهو يقول: كلُ بيضاء تفتح القلب وتصلح أن تكون مكاناً لشامة الخدّ وماعون شهد ووسادة مهد.

قلت: ومتى ذقت الشهد آخر مرّة؟

قال: لم أذقه بلساني مطلقاً؛ ولكن كانت روحي تتمتع بلذته يوم نظري يكاشف بوحي برغبة الوصول.

قلتُ: هل حسبت عنقود الجارية الحلبية شهداً؟

قال: لأنني لم أذق الشهد إلاّ بنطق لساني، فربما عنقود العنب القادم من رحمة تلك الجارية أطيبُ طعماً من أي شهد.

ثم غاب في تخيّل ملامح صاحبة العنقود وقال: حتى نتذكرها معاً بالرّحمة لتهدأ في غيابها عنا عند مَن يمتلكها، وكنتُ أنت تراها كلّ يوم، وأنا أتخيلها كلّ يوم ولحظة أقول لها: يطوف عطرك في المسافة، رضاب شهد وشامة خدٍّ وتفاصيل خيال، إنك الدمية التي كنت أصحو عند شمسها وأتدفأ بها من كلّ برد.

قلت: أنت تتغزل بها كأنك جالستها أكثر مني!

قال: ما تشعره بنبض قلبك لن تحتاج إليه ليكون بصورة في ناظريك. يكفيك منه خيال عطر ليكون متوسداً لحظتك بشغف متبادل، وأظن أن حبةَ المشمش والخوخ وعنقود العنب قرّبوا من عاطفة الحنان ليشاركوا في هذا الوجدان.

قسوت عليه وأنا أقول: ولكن تلك العاطفة تحتاج إلى عطر وأناقة وذقن حليقة، وأنت لا تمتلك من تلك المظاهر شيئاً!

قال: من تتأنق روحه كل ما على الجسد ليس له غرض سوى ستر العورة.

قلت: ولكنك لن تقنعها بهذا، وحبة المشمش كانت شفقة؟

قال: وأنا أشعرُ من أنْ يشفق عليّ يعشقني.

ضحكت وقلت: ولكنها لم تذكر اسمك يوماً؟

قال: لقد كان عنقود العنب يأتي إليّ برسائلها الصوتية.

عدتُ إلى أزمنة المستقبل، وتذكرتُ أني سأفتح له صفحة على الفيس بوك، وستأتيه رسائل صوتية كثيرة، وسيسألني كيف يردّ عليها.

وحين علمته الطريقة صار في الردّ ينسى نفسه ويغني عندما يكون صاحب الرسالة الصوتية رقيقاً أنثوياً.

كانت الرسائل الصوتية تدفعه إلى شهية الاستشعار، وأعرف منه أن الاستشعار هو ما تتحسسه الرّوح وتلقيه رعشةً على البدن، وسمعت منه أنّ الرّعشة في أوج لذتها تكون على البدن، ولا تكون بين الفخذين أو الشفتين، وبرر هذا قال: أما ترى نشوة الدراويش تكون رقصاً وأكثر ما يهتزُّ فيها هو الكتفان؟

قلتُ: هذا يعني أن الغجريات يكتسبن من الصوفيين بعض بهجتهن، فكن راقصات بارعات.

فهم تساؤلي وقال: نحن لا نرقص يا ولدي؛ نحن نهتزُّ فقط.

كنا على خطوات المسير إلى الأهوار وقد اجتزنا قرية كانت تسمى سابقاً سوق (جنيديل) وكانت جزءاً من مقاطعة كبيرة اسمها (طيسفون). ولاحقاً في الزمن الذي أتيت إليه وجدتُ أن اسمها «شيخ سعد» نسبة إلى اسم أحد مشايخ قبيلة بني لام، ويقابلها في الأفق القاحل امتداد عميق لأرض بلاد فارس حين تفصل حدودها تلال حمرين، وأذكر أنّ أخي قبل أن تندفع سريته إلى أهوار شرق دجلة كان قد خدم مع سريته في مخفر اسمه «الزعفران» في منطقة الشهابي التي يقابلها جبل دهلران الذي نزح من أوديته بعض الصابئة ليسكنوا قريباً من الأهوار، ويقول أخي: إنه في الليل عندما يكون على سطح المخفر يرى أضوية من ناحية شيخ سعد، التي جلسنا ضيوفاً عند ضريح أحد الأولياء المدفونين فيها، واستذكرتُ بهاجس الشوق روح أخي، فقال الشيخ: نحنُ في الطريق، لا تجعل البوصلة تتجه إلى غير خطوتنا، فعدلنا من رحالنا وشكرنا سادن ضريح الولي، واتجهنا صوب شروق الشمس، حيث قالوا لنا: إن القرية القادمة تسمى علي الغربي، ويبدو أننا دلفنا أرض ميسان، وأخبرني: إنّ أيّ أرض مسماة باسم علي صاحب البركة فيها علوي، فإذا وصلنا –ويقال: إنها بعيدة عنا بمسيرة نصف نهار- فسوف يكون مبيتنا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صحن الضريح.

قلت: عادةً أنت تنام عند دكة الجامع، ولا تلج إليه؛ لأنك قلتَ لي مرّة: في الداخل محراب، وكلُّ محراب يحتاج إلى خطيب ومصلى، وأنا خطبتي في نبض قلبي وصلاتي في انتظاره.

قال: كنت أقصد في هذا الجوامع ولا أقصد الأضرحة؛ لأني بشروع القانع سيكون لي ضريحٌ ذات يوم. العلويون هنا في الطريق يهدّهم تعبُ الهروب من عسس الخليفة، فيدفنون حيث يقتلهم تعب أقدامهم والعطش، وأنا تقتلني المقصلة. الفرق بيننا: هم يدفنون بكامل أجسادهم وأنا سأدفن مقطعاً إلى أوصال.

أعود إلى ذاكرة حانوت الوراق وأتذكر أني قرأت عن أصل المكان (علي الغربي)، فيخبرني قرطاس عند الوراق عن أصل تسميتها، وعليّ أن أنقل إلى الحلاج ما كُتبَ عنها؛ لأنه يؤمن أنّ الأمكنة تحتاج إلى معرفة مسبقة أكثر من الأزمنة؛ لأن الزّمان قد يرهنه القدر، أو الغيب، أو الصدفة، ولكنّ الأمكنة صورة لواقع على العين أن تبصره وتستقر فيه محطة، أو مكان عيش، فيعلمني الوراق بأنّ منشأها قريب من تاريخ ثورة الزّنج:

والاسم (علي الغربي) منسوب إلى قائد ثورة الزّنج في أيام المتوكل العباسي الذي يرجع نسبه إلى زيد الشهيد، وهو أبو الحسن، أو أبو عبد الرحمن علي بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عيسى بن زيد بن علي بن محمد بن عبد الله جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وسمي الغرابي.

وهكذا يمسك الحلاج النسب العلوي، وأشعر أنه يهتم ليلوذ بليله وهو يعرف أنّ الصوفيين ليس لهم مع العلويين هوى؛ لكنه لاذ به بشغف عاطفة أنّ الأضرحة التي سكنت إليها أجساد السادة العلويين أغلبها ماتت من الجوع والعطش في قاحلة الطرق الحدودية، إلاّ هذا السيد فقد مات ثورياً.

ويفسر الحلاج ارتماءه في أحضان ليلِ المقام الذي لمع فيروز قبته مع قمر بدا بدراً مكتملاً يفسره أنّ صاحب المكان مات ثورياً ضد العباسيين، وأنه (الحلاج) سيصلب لاحقاً بفرمان عباسي.

أتخيلُ أخي في إجازاته الآتية من أزمنة القرن العشرين، حيث ساقوه جنديّ احتياطٍ في سرية كيميائية، وكانت الحافلات التي تقلهم بين ناحية العزير، حيث قرية البيضاء مكان ساتره الأخير، وبين بغداد تتوقف في مطعم بعلي الغربي. ويقول أخي: الحافلة التي تكون متجهة إلى جبهات ميسان ينزل جنودها للصلاة في الضريح وتلطيخ مناديلهم بحناء النذور على جدرانهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أجل سلامتهم، وعودتهم إلى أهاليهم في إجازات أخرى، بينما الجنود الذاهبون بإجازات إلى مدنهم يذهبون مباشرة إلى المطعم لتناول الطعام. أمي نصحت أخي أن يلطخ منديله بالحناء في الذهاب والإياب.

يقول الحلاج: ومع هذا سيموت أخوك.

قلت: نعم.

قال: وسنطلب تفسيراً من السيد الذي نستظل بنجوم ليله الآن.

قلت: شهداء الحروب لا يحتاجون تفسيراً لموتهم؛ لأن القدر ليس بيد صاحب هذا المزار، بل بيد الله.

صاح بصوتٍ عالٍ: وهذا ما كنت أردده؛ قصيدة قلب ومهجة حب وضياء للدرب.

قلت: ولكنك تقتربُ بالبوح إلى ما هو ممنوع.

قال: لقد عوّدنا أن نكاشفه.

قلت: نكاشفه بالصلاة والدعاء والإحسان.

قال: وبنبض القلب أيضاً.

قلت: الله يحتاج حباً ولا يحتاج غراماً؛ لأنّ في الغرام ملامسة، وفي الحبّ نداء وتواصل بالأماني.

قال: يا ولد! الحبّ هو الغرام، ومن أحبّ أصبح مغرماً، ومن أغرم فُتِحت له المسافات.

قلت: نحن في مقام سيدٍ يعرف الصلاة، ويعرف الثورة، ويعرف التقوى، فلا تسمعه ما لا يريد سماعه، فهو مثل آبائه وأجداده قد يعطف عليكم بصفتكم صوفيين، ولكن يختلفُ معكم في منهج التواصل مع الله.

قال: نحن ضيوفه ولن يطردنا، وسأكون قريباً إليه.

انظر إليه الآن.

ومن لحظته حفّ على ركبتيه مبتعداً عن باب ضريح علي الغربي، وعلى بعد أمتار أصبح رأسه بموازاة أعلى القبة، وصار يناجي شيئاً يُعتقد مرسوماً على الطين المصقول والمزرق الذي حسبته فيروزاً أول مرّة؛ لكنني عرفتُ أنه قماش سميك تبرع به واحدٌ من تجار أصفهان كان قد

زار المكان بعد موت السيد وانطفاء ثورة الزنج.

داهمني النعاس لأننا مشينا كثيراً طوال النهار، ونمت تاركاً الحلاج في تواصل مع السيد العلوي، وحسبتها مصالحة بين التشيع والتصوف؛ لكنني اكتشفت أنّ كلّ ما طرحه الحلاج تهدّج حتى الفجر لم يجد لها إجابة من صاحب القبة.

الفصل الثامن

علي الشرقي، شرق الروح ودجلة

صباحاً تحركنا، ورفض أن يتناول الخبز الذي قدمه له سادن الضريح، فشعرت أنه غير راض عن الذي جرى أثناء نومي، ولم يتحدث معي.

رحنا نحرّك دابتنا بطريق ترابي يمتدُ بجانب ضفاف دجلة، وسألني: أي مدينة ستكون وجهتنا؟

قلت: علي الشرقي.

قال: ما بين الشرق والغرب نسل إمام معصوم، إنهم يزاحموننا على الرؤيا؛ ولكنهم فيها يحكمون العقل بطقوس الصلاة، ونحن نضع مع الصلاة عشقاً.

وطوال نهار الطريق لم نتحدث، كنتُ أود أن أسأله عن الذي جرى أثناء نومي؛ لكنه بسبب أنه لم ينم كلّ ليله غفى وهو فوق دابته، وكاد يسقط عنها أكثر من مرّة، فقلت له: هذه دجلة قريبة منا، استحم ليذهب عنك النعاس.

فقال: لنحترم غبار الطرق على أجسادنا، فلنمضِ، فإني بسبب ما فيّ من ابتهاج في نسيان الألم ومسببه لن يُكسرَ مني ضلعٌ حين أهوي من فوق شيء.

أتخيلُ لاحقاً كيف أنزلوه من المقصلة، وقد أسقطوا جسده من فوقها، وسمع جميعهم أضلاع خاصرته وهي تتكسر.

وهكذا أكملنا المسير، وجعلت دابتي قريبة جداً من دابته، أمسكه حين يميل نعساناً، أو غافياً، وأعدل جلسته، فيفزُ ويقول: أظنُ أني نمت ساعتين. فأقول: إنها ليست سوى دقائق، فيرد، وتلك هي كفيلة بجعل سلطان النوم إليه حلماً وجمالاً وعافية وهوى.

وفي آخر النهار أطلت علينا قبةٌ أخرى ومزارٌ آخر لسيد علوي اسمه علي الشرقي.

قال، وهو ينظر إلى القبة المرسومة على أفق أجفاننا: لأنّ الشمس تشرقُ عليه قبل الآخر أسميناه مشرقاً.

وقبل أن نصل أعيد الاستذكار عن المكان وصاحبه ما كنت قد قرأته عند الوراق الذي كان يبيعني ورق الكتابة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنّ «صاحب هذا المزار هو علي بن أحمد بن محمد بن داود الأمير بن موسى الثاني بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)».

إنّ السيد علي الشرقي كان معاصراً لحاكم الدولة العباسية، وإنه سمي بالشرقي في رواية لأن مرقده الطاهر واقع في شرق دجلة، وإنه سكن أطراف مدينة العمارة سنة 395 هـ، وهي الفترة نفسها التي حكم فيها الخليفة العباسي القادر بالله، وكذلك وجود الدولة البويهية في العراق.

وأشعر أنّ التواريخ لا تعني الحلاج، فهو يبحث مع تلك الشخوص المناجاة والمكرمات، ويشعر بخيبة أنه مع علي الغربي لم ينل من ندامة الهوى القلب والسماء سوى صدى صوته؛ إذ لم يجئه أيّ ردّ حتى انبلج الفجر، ويأس ولم يستطع النوم لأن الصبح سفرنا.

فليجرب المناجاة مع علي آخر يظهر فيروز صباحه مع شرقي تجيء منه الشمس.

Telegram:@mbooks90

وكانت القبة تقترب، والزائرون عنده في مبيت الليل نراهم يسيرون حفاة أو على ظعائن، وأشعر أنهم مثله يريدون إبقاء الليل دونَ نعاس عند صاحب القبة.

يقتربُ منا أحدهم ويسأل: هل أنتم من بلاد فارس؟

فأجيبه: وإنْ كنتُ، ماذا تريد منا؟!

قال: تأتون بفواكه مجففة لا نزرع منها، ومنها المشمش، فأنا أحب أن أتذوّقه وأشتريه منك لكن بالمبادلة.

قلت: وماذا تعطيني؟

قال: خبز الرز الذي نسميه «الطابق».

وكنا جائعين أنا وصاحبي، فقلت له: نحن جائعان نعم، ولكننا من أهل بغداد وذاهبان إلى بلدة في الأهوار يقال لها: العزير.

قال: أعرفه، وقد زرته، ومن هناك اشتريت المشمش المجفف من زائرين أتيا من بلاد فارس، ولأنكم جائعين خذوا هذا الرّغيف ولا أريد منكم المشمش.

قال صاحبي: ربك أول مكارمه الحب، وما بعده يأتي الخبز.

قلت: هذا ينافي منطق الحياة، فمن دون الخبز لا يمكن أن نحب.

قال: أنا مع الحبُ أصوم عاماً كاملاً، ومَنْ يغذي أحشائي وجة الحبيب.

راح الرّجل يسألنا عن بغداد وعمائرها، كما سمعها من المسافرين، وحين انتبه إلى صاحبي، وهو لا يرفع رأسه كثيراً، سألني الرّجل: هل رفيقك أعمى؟

قلت: لا، ولكنه يضع عينيه في بعض المزات داخل قلبه، فلا يحتاج إلى رفع رأسه.

قال الرجل: وهل في هذا علا.

ردّ الحلاج: لا، يا صاحب الرّغيف، إن في هذا ابتهاجاً.

هزّ الرّجل رأسه وابتعد عنا وقال: لا أعرف ماذا أردّ عليه هو يقول ما لا أفهمه: حسبتكم تحملون مشمشاً مجففاً، ووجدتكم تأكلون وتنطقون الغرابة.

تعجبت من منطقه وقلت: أنت متعلم جيداً.

قال: لا، ولكن من يزرع الرز يعرف ما تنطقه البطون.

قلث: ولكن صاحبي ينطقُ من قلبه.

قال الرّجل: بعد أن أكل من رغيفي.

ردّ الحلاج مستنكراً: لا تعتبره منية وإلاّ تقيأته، وأخرجت فتاته من بطني.

قال الرّجل: معاذ الله! أنا جئت لأطلب حسنة لا لكي أطلب فخراً.

قال الحلاج: وستناله ما دمت أخرج نور الحب بكرم الرّغيف.

قال الرّجل: أبي شيخ قريتنا، فلو أتيتم معي بعد زيارة السيد ستنالون منه عذب الكلام، وسيأنس بجلستكم، فهو ذهب إلى الحج وسافر إلى بغداد وحارب ضد الزّنج مع العباسيين.

اعتذرنا من الشاب وكان في عمري، وقلت له: إننا نسيرُ لنصل إلى مقصدنا، وكان من الراحة أن نجد مجلساً مع أبيك؛ ولكن صاحبي لا يحبُّ مطارح البيوت، هو يفضل دكات الجوامع والأضرحة ليكون ضيفها، تلك فلسفته وطريقته في الحياة.

قال: وماذا تعني بفلسفته؟

قلت: ثقافة ما يفكر فيه.

قال: وماذا تعني الثقافة؟

ردّ الحلاج: رأس الرمح حين يتمناه القلب ليكون الدم حبر كتابة شوق لمن تود.

ضحك الفتى وقال: عرفتك الآن! أنت واحد من الدراويش. ربما ستجد منهم عند العلوي الذي اقتربت قبته منا.

أحسّ الحلاج بضيقٍ وهمس لي: إنْ وجدت بعضاً منهم أبعد جلستي عنهم.

قلتُ: وهل فهم ندماؤك فيما تتمناه وتشتاق إليه؟

قال: أفكر بما عندي ويسكنني، وإن تشابه التفكير أصبح فيه الغرام مشاعاً، ومن يُشعْ في غرامه لا لذة في وصله، ومن لا يمتلك اللذة حجر وحشفة تمر.

لم يأنس الفتى بما نطق به الحلاج، فأغلبه كان مبهماً بالنسبة إليه؛ ولكنه، وهو يبتعد عنا ليلتحق بمن كانوا يسيرون، ابتسم في وجهي وقال: صاحبك هذا معتزٌ بقلبه وينسى بطنه، لهذا أخاف عليه من أن يكون موته بسيف وليس بجوع.

تعجبت ثانية من حكمة الفتى الذي قرأ التعجب في ملامحي وقال: هذا ما عرفته من كلام أبي الذي حارب الزّنج وجرح، ومَن عالجه درويشٌ في مقام النبي العزير.

قلت: ربما كان أبوك معي في سرية الجند.

قال: لا أظنُّ، فجميع جنود سرية أبي من أهل بابل.

ضحكت وقلت: نعم تلك السرية تبعد عنا فرسخاً واحداً، وكنا نسميها سرية التمر؛ لأنهم جلبوه معهم من الحلة أكياساً ليتقوتوا به.

اقتربنا من المزار، وكان حشد الناس كبيراً، حتى إنّ الأنفاس تضيق حين تريد أن تمسك صندوق القبر، وقد امتلأ الصحن بأعراب قرى وسكنة الأهوار، وأناس قدموا من بلاد فارس القريبة وأغلبهم تجار، وشاهدت أيضاً في واحدٍ من أركان الصحن تجمعاً للدراويش، وحين أخبرت معلمي عنهم قال: علينا أن نتحاشاهم، فحتماً بعضهم يعرفني وسيناظرني، أو يريد عناقاً لبهجة مشتركة حينما سيتلوها عليّ أن أتلو مثلها، ولو تلوت شيئاً مغايراً لما يبتهج به سيشجُّ رأسي بعصاه، ودائماً أشعر أني أخالفهم بإتيان الهوى، فهو حتى يجلبوه يحتاجون أن يرقصوا.

أما أنا فلا أحتاج سوى أن أغمض أجفاني وأفتح له باب قلبي ليأتي.

قلتُ سأتركك إذاً لأذهب كي أعيش بهجة ما يفعلون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: وحين تعود لا تقص عليّ ما فعلوا، فأنا أعرف ما يفعلون، وليس مني هذا الطواف في غياب رؤوسهم وتراقص أبدانهم، وسأضع قطناً حتى لا تصل إليّ أصوات دنابكهم، وحين تقف لتمتع ناظريك بما تراه في رقصهم وتراتيلهم حاول أن تغمض عينيك حتى لا يروني فيها، فيهجموا عليك ويأخذوا من ثيابك ما يدعون أنها بركة، وسيطلبون منك أن تأخذهم إليّ، ولأنهم عميان فأنا على بعد أمتار عنهم ولا يرونني!

قلت: ولماذا تصفهم بالعميان، وأنت من يقول في رغبة العشق بدلالة إحساس المعشوق التنافس فقط في انتظام الخفقان لبهجة واحدة؟!

قال: ونحن متنافسون، ولا يعتبرونني معلماً، ومن يترأسهم يعتبرني ضداً، والضد، يا صاحبي، بعض شهية السيف.

الحروب اشتعلت بالضد، ومؤامرات الملوك تمت بالضد، والطلاق بين الأزواج بفعل الضد، والخداع في البيع الشراء صنيعة الضد، إلاّ الحب الصادق بين الخافق والنور، فالضد هنا مفقود، وأنا خافقي له وحده، ورئيسهم يعتقد أنّ الضد هنا تحسمه العصى والدعوة إلى إهمالي.

كنت أعرفهم في بغداد وما حسبتهم يصلون إلى هنا.

أبتعدُ عنه وأستديرُ صوب جلسة الدراويش، وأتذكرُ ما كنتُ قد كتبته عنهم بورقة يوم كنت أراهم يتجمعون أمام حانوت ربّ عملي أعطيل وهم يريدون للجواري أن تسمع خفق قلوبهم والدفوف.

ففي هذا المكان، وحيث يتواجد أصحاب الطرائق الصوفية، كان الناس يتركون لديكة السطوح أن تقول لهم: إنّ الشمس طلعت عليكم، فهيا إلى دكاكينكم وأشغالكم؛ لكن بعض المدن طورت يقظة صباحاتها، عندما صار الدراويش ومتصوفة تكيات جوامعها أول من يستيقظون ليبدؤوا أناشيد مديحٍ لمن أخرج الشمس من جبها، ومنها في الشبه النور الآتي من وجه يوسف يوم انتصب بخجله الذكوري أمام امرأة العزيز، وهاج فيها ما هاج بتأثير هذا النور، وتلك المدائح التي تحوّلت إلى صدى في أول ساعات النهار؛ إذ تظل طوال اليوم عبارة عن لحظات شدوٍ في ترقبٍ من تلك الكائنات التي ارتدت العمائم والعباءات الصوفية الخشنة، وتعرقت وجاعت؛ ولكنها لم تتوقف عن تلك الأناشيد العالية الصوت التي كانت تتدلى على نحوِ أدعية، أو قصائد، ومرات حين تشتدُ شمس الظهيرة ويهرب الناس إلى الظلّ وعرائش البساتين تتحوّل تلك المجابهة بين وجه المتصوف وقوة ضوء الشمس إلى ما يشبه الهذيان التي حين يتفقدها الناس، بعضهم يحنُ إليها، والآخر يقول: استرحنا، ومن يتفاءل بتضحيتهم بنعم الحياة إلى العشق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخشن، تسكنه دمعة شوق فيبكي.

هذا ما سكنت في خواطر الكتابة إليهم، وكنتُ مدفوعاً بشغف مسامرة الحلاج في أيامنا البغدادية، والآن أشاهدهم في مكان غير السوق، وقد افترشوا الحصير عند خاصرة قبة الضريح وسدنة المكان ينظرون إليهم بريبة وتوجس وغير راضين عن طقوسهم التي يعرفون فيها أنَّ بعض الناس سيصيبهم الذعر من ارتباك الحركة ولمعان أعمدة الحديد التي تنتهي بنتوء كالرّمح يختصر الخاصرة من هذا الجنب ويخرج من الجنب الثاني.

لهذا حين رأى الحلاج لمعان قضبان الحديد والسيوف قال: هؤلاء ليسوا مني، فلا تكتب عنهم ثانية، واكتبْ ما ينطقه قلبي ولساني.

لكني كنتُ أعيش الانبهار، وهو كان يعيش تأمله، وقد شعرتُ بأن لرموشه اتجاهاً ضوئياً صوبَ قبة صاحب الضريح، فأعود لأخي وذكريات طريق الحرب، فيتحدث عن سيد علوي يؤم إليه الجنود من أجل البركة، وكل من كان لديه منديلان ملطخان بالحناء: واحد من علي الشرقي وآخر من علي الغربي، يعيش قناعة أن تبتعد عنه شظايا الحرب، لكن أخي قتلته الحرب، وفي جيبه منديلان من مناديل الحناء، وأعرف أن صديقين لأخي في لوائي مشاة في القاطع ذاته ماتا أيضاً، والمناديل المحناة بجيوبهما.

ولا أعرف كم ذهب إلى فردوس العلا من جنود المناديل، فأشعر أنه يجرّدهم ويقول: آلاف مؤلفة، ولا أحد منهم يعرف أني سأمر على المكان، ولن أطلب منديلاً محنّى؛ لأنني أرى قدري مثل موتهم المحنى حين نعود إلى بغداد.

وأعرف أنهم لو وجدوا المناديل في جعبتي لحظة منيتي لرموها بعيداً، وقاموا بتنفيذ ما سيقرر القضاة. لهذا لم ولن أسعى إليها، ويكفي أنَّ الذي خياله يسكنُ هذا النبض برقة عاطفته ورحمته وقدره هو المحنيّ لذاتي منذ أن شعرتُ بنوره وحتى لحظة انبهارك بمن يدورون ويثملون ويؤذون أنفسهم بسيوف لا يمكن التقرب بها إلى الله، إنما السيوف تقربنا إلى الحرب فقط.

وعند مناديل الحناء أذهب إلى قرن الحروب البعيد عن لحظة أني أشارك الصوفي طقوس التبرك بالولي المدفون هنا، وأعلم أنَّ الدراويش الذين يضربون بدنابك الدروشة، ويرفعون السيوف والقضبان جاءوا من ثلاثة أيام من جهة في أرض فارس لم يقولوا: أين هي، وفي نيتهم أن يذهبوا ليمارسوا الطقوس ذاتها في علي الغربي.

وقد سألت أحدهم حين أتاني ليطلب شربة ماء بعد أن أنهكه الدوران، وهو يحمل هودجاً

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صغيراً فلئ بالشموع، فأتيت له بالماء، وسألت عن جهته، فقال: نحن من أصفهان، ولدينا مع تلك الأمكنة محطات توصلنا إلى بغداد، حيث لنا مرجع نثق به وبرؤياه، مدفون في مقابر قريش بكاظمية بغداد، وموسمنا عنده في أول الربيع؛ أي بعد أسبوعين.

وحين أخبرته أني أصطحب الحلاج معي.

قال: هذا منا، من أصل فارسي؛ ولكنه يبغض طرائقنا. نحن نغتسلُ بعد الصلاة وقبلها، وهو لا يفعل. نحن نرتدي محبة الله خشيةً، وننسى أنفسنا في الدوران بحثاً عن رحمته، وهو يريده أن يأتيه وهو جالس على دكته.

قلت: هو لديه مشكلة معكم ومع طقوسكم.

قال: ولن يستطيع أن يفعل شيئاً؛ لأننا نجلب الى صفنا أغلب من اعتنق الصوفية، وهو لم يجلب سوى نفسه.

أعرف أنّ الحلاج لو سمع النقاش لعتب عليّ، وإنْ غضب سيتركني، ويكمل السير وحده، وعندما سألني الدرويش إن كنت من مريديه.

قلتُ: أحسبه معلماً لحالة الهدوء وعشق الجمال، ولي معه مشترك جميل.

قال: الشعر الروحاني؟

قلت: لا، بل عنقود العنب، وحبتا المشمش والخوخ.

لم يفهم الدرويش مني شيئاً. شرب الماء وعاد لينضم إلى حلقته، وعدتُ إلى رفيق مسيرتي وسألته: إن كان سيقضي الليل في مناجاة صاحب القبة.

فقال بغيظ: أتمنى أن أفعل ذلك؛ لكن الدراويش لديهم ضرب عال بدنابك الرقص، وبهذا سيكون حاجزاً بين صوتي وإصغاء الولي.

وبعيداً عن ذهنه الشارد في جهة ما يوذه، وكان كلّ صباح ينطق فردة الود بمعنى جديد، وآخر ما نطقه أمس حين هممنا بالخروج من قرية علي الغربي قال: ما وددت السفر خطوةً تبارك هيامي إلاّ ظلك.

وكنتُ أشعر في أول فراسخ الطريق أنّ الشمس تحرقنا بلهيبها فسألته: وأين الظل؟

قال: تستظل به أرواحها في نشوتها في الإتيان به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: ومن هو؟

قال: الذي يشبع فيها حنيناً إلى وجهة السفر، كي لا نستعجل في السير.

ولا أعرف لماذا لا يجلب لروحه ظلنا مع الذكر الذي يتلوه الدراويش، وكان يتحين سكوت الضرب والنقر والصوت المتعب من حركة دوران استمرت لساعات، وكل تكبير يسمعه يردّد معه بصمت: وأنا أكبر لك بقلبي، وأشعر أننا نتقابل فيه. وفي اللحظة التي صمتت الدفوف رفع من رمشه بمقدار ما يراه في أعلى قبة الضريح، ثم غاب في همهمة وكلام خافت، وشعرت أنه ينادم الولي وينتظر منه جواباً، ولأنني متعب من سفر النهار تركته مثل المرّة الأخرى، ونمت على أمل أن أجدها فجراً، إما قائماً لصلاة، أو يغط في النوم، وأعرف أنه سيتأخر في المنادمة، وأن أي جواب لن يأتيه.

أما أنا فقد تركته وقد أغراني الليل بالمراقبة، وأنا أحسب كم من الواقفين يعيشون ملامح الخوف مما يقدمون عليه في جعل مكان السيف خاصرته، وبعضهم بدأ يثقب شفتيه بقضيب حديد مشوي بالنار. آخرون يشعُّ فيهم ما يعد الذي يراه أمامه بركة ومعجزة، وبعضهم يرون الأمر أول مرّة، فمن كان فيهم صغيرٌ يلوذ بعباءة أمه لذعره مما يرى.

ظلت الدنابك تضرب بارتجاف الأيدي والعيدان. بقيت روحها تمسك هاجس الأبد المنفتح على المكان المضيء بمواقد الصيف، وجمرها الذي لا يحتمل، بينما كانت أباريق الشاي تشدُّ عطر الهيل والزعفران إلى أنوف من راحوا يوغلون في دفع القضبان إلى داخل البطون المترهلة لتظهر من حافة الخاصرة، ثم يزاول عليها دوران مهتز برعشة التكبير والغياب ونظرات الوجوه المذهلة التي صبغها خوف رهبة وخشوع وتألم لما يحدث لتلك الأجساد التي تطوّعت لهذا الغياب، ربما بالتوارث، وربما بالتعلم، وربما برغبة الاكتشاف والذهاب مع روح من يتناغمون إليه بالرقص والمديح وضرب الدفوف، حيث ذكرُ من يمتدحوه يطيل عمره، والدروشة من أجله تقرّبُ نوره إلى نارنا، فتغيبُ الفصول وتأتي الأصول فتعلمنا الطرق المعبدة إليه.

وأنا في دائرة الدهشة، كان عليّ أن أراقب الوجوه جيداً، تكاد تلك الوجوه تشتعلُ باللمعان، هم ينظرون ولا ينظرون، فأتذكر لحظتها كلمات أخي حين أنهى قراءته الحماسية لكتاب «ألف ليلة وليلة»: «هذا كتاب لفتنة الروح والطقوس التي تجعلُ الخيال واقعاً لا نفترضه؛ بل نمسكه بأصابعنا، وكل هذا بفضل روح الكتاب المشعة».

الآن عرفتُ أنّ الوجوه لا ترتجف من الهلع فقط؛ ففي السعادة أيضاً، وفي ممارسة هكذا طقس، يشدُّ فيه الدرويش روحه إلى روح نصل السيف. وهكذا في غير طقوس لن نرى تعابير

وجه إنساني تبدو في تيه من النظرات والشدّ وغياب تفسير المشاهدة. ربما لأنّ صاحب الوجه ليس معنا، بل مع الذي دعاه ليرتفع في الهواء طائراً في فضاء رغبته لمحبه، وهذا ما يطلق عليه المتصوفة: التنور بالنور ودخول بهجة المحظور.

استمرّ الابتهاج المهيب بسطوة الدوران حول قطب غير معلوم، ولا أدري إن كان يستقرّ على العشب اليابس، أم في ذاكرة متبع الطريقة؟ غير أنّ تصاعد الضرب بالطبول والدانبك والأقراص النحاسية مكنني من تخيل شكلِ الرّوح المشعة وطريقة تعاملها مع المدائح النازلة من حنجرة شيخ هرم بدت لحيته مثل كومة من الغيم، وهو يسطرُ بسجع سليم النطق والتحريك قصائد مدح غير مسموعة، وليست مسبوكة سبكاً جيداً في حقّ الرّسول الكريم، ولكن هيبة المشهد المتحرك بانفعال وصخبٍ، وتصاعد حدّة الشعور بالوصول إلى ذروة ما، أعطت لصوت الشيخ بعضاً من الانشداد والتخيّل والاستمتاع، وعدا ذلك يحسّ المثقف سماعاً أنّ هذه المدائح لا تتناسب مع روح الشجن المرتبك الذي يعجُّ بفوضى الدوران ولمعان قطع الحديد الملساء خناجرَ وسيوفاً وقضباناً!

اقترب الإعياءُ من بعضهم. امتزج التراب بالدخان، وبدت القبة تهتزُّ في ناظور الرائي من الضرب المتتالي على الباحة الترابية، وجراء تصادم الإيقاعات بموزاييك القبة لتربنا الفسيفساء المطلية بلون الكاشان رموزاً مشفرة لا تذهب بالذاكرة العارفة بعيداً؛ إذ يمكن تخيل الأمر وفق منطوق:

«أنّ صاحب المقام هو من أوحى إلى زائريه أن يمارسوا هذه المودة بذلك الشكل، وبدت لي أن عيوناً من الكبرياء والعزّ مرسومة في وسط القبة، وهي تشعُّ بالابتسام والرضا، وتعيدُ إلى ذاكرة الدائر في المكان وهو يبحثُ خلال الروح المشعة عن قطب يرتكزُ عليه هيبة أن يكون أولئك الأولياء الصالحين، خطوتنا إلى صفاء الذهن وسط عولمة جديدة وحضارة مرتبكة وانتشار مهيب لسذاجات الموسيقى والملبس والسياسة».

يقودني هذا الشكل من الفنتازيا إلى تخيّل ما يجري بصورة مفصلة. الاحتفاء بالطقس بطريقة إثراء الذاكرة بالمشاهد الواقعة في خانة «صور فوق العادة».

وهكذا تهيمنُ الفكرة على عقل المكان، تضغُ متنازعات من التفكير بماهية هكذا طقوس. متنازعات لا تمتُّ إلى الواقع سوى أنها تمارس على أرضه، ما حقيقتها فإنها مداومة لإثبات خيمياء الإيحاء، وقدرتها على تسليط الحسن، وطاقتنا الداخلية لصناعة التوحد والتعبد، وتلبس ما نتمناه لآخرتنا أن يدأ تقودنا إلى الفردوس، وتحلم معنا برؤية المعاني العظيمة، وحتماً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحب هذه القبة واحد من تلك المعاني التي ولدت بفضل انتمائها إلى نسل الوجدان والذكر الدائم لصاحب العظمة.

ظلّ المكانُ يفيضُ بسحرية الانتشاء، وظلت رائحة الطقوس تبعثُ تعاريفها ومشاهدها إلى الأنظار وهي تعيشُ الذهول، بينما يد الليل بسطت مساحة التراب والنار والأصوات المتداخلة حتى تحسّ أن فاصلة الزمن قد فُقِدَت، وأنّ عليك أنْ تثبت بعقلك وجسدك كي لا تطير في الهواء.

الصيف يرهقنا بمناخه ويجعلُ الجسد ينزف ماءً، وها هم دراويش الطريقة الرفاعية ينزفون ينابيعَ من مياه دورانهم المستمر حول القطب السائب الذي جذب الحلاج إليه ذات يومٍ وتركه بعد ذلك معلقاً على خشبة.

الآن تتعلقُ حواس المؤدين. تظهرُ لك صورة مقربة لذات الولي، تحسّها شعاعاً من النجوم، وهي تنزعُ عن أجسادها اللامعة كاشان القبة، وتأتي إلينا مرافقة المدائح المسكونة في الحناجر المتعبة.

تستمرُّ وتيرة الهيجان. هم يسمونه ذروة الحضور يدفع بالمحتفى إلى غضب جديد وأداء متشنج، ولا شعوري يبدو ظاهراً في تغير مواصفات الجسد. الطويل يلتف على مكانه، وبدورانه السريع وترنحه الدائم يتحوّل إلى خيط من ضوء يتحلزن في المكان كدائرة بيضاء.

البدين يصبح مثل بطيخة تكبرُ مع الحركة والتمازج حتى تحسّها ستنفجر بعد لحظة، ومن مكان تتصاعد زغاريد النساء، بينما رهبة المودة والخوف تجعل مشاعرهن سائحة في المكان ليبدأن بإطلاق أصوات نذرية تقرب أنوثة التشفع إلى الولي الذي جثمت فوق قبته سحابة من ضوء النجوم وشعاع المواقد، وركل بدت ذراته تسبح في الفضاء بفزع ولذة.

يبقى المكان وروحه يختلجان بهوى تلك الطقوس، وتتسفر الذاكرة في مكانها. يطلُّ عليك الجنيد، والغزالي، وعمر الخيام، وابن العربي، وابن الفارض؛ عمائمهم خضر ونظراتهم منشغلة في رغبة العودة إليه.

ضوءٌ أحمر يدفعُ بالإيقاعات إلى مدى أبعد، فتصابُ الصحراء بلذة الإصغاء، ولم يعد يسمع للحيوان المتوحش صوتٌ، أو دبيب خطوات.

يفترش الأولياء خواطرهم، تدعمهم روح صاحب المكان بمودة المشاركة. تفرُّ من البيد أرواحنا، بينما أرواحهم باقية كأنهم ضيوف! حضرته المتوحدة مع النأي الذي اختاره مثلما

يختار الوطنيون منفاهم، يقيمون معه سعادة المشاركة والحديث، ويسألونه عن بهجة تقبيل يد الرسول. فيردُ: هو اختارني وأنا اخترته.

يخلعون عمائمهم تشوقاً، يدفنون رؤوسهم في الرمل كمن يغرق في يم لذيذ، يغرقون بمتعة النعامات، ويكبرون وينشدون الشعر، بينما تبقى حلقات البشر وهي تشارفُ على إطفاء شعلة الودّ حين يخفُ ضرب الصنوج والدرابك والطبول، وهي تحش بأنْ السيوف بدت متعبة حين خفّ لمعانها.

يقتربُ الصباح من الأجساد المتعبة. تلبسها غفوة قصيرة ومتعبة؛ لكنها لذيذة، وساعة ترسل الشمس شعاعها اللاسع تحت أجفان النائمين، ويقال: إنْ ثمة أصابع مرتجفة هي أصابع الشيخ المريد الذي ينتمون إليه بفطرة ما في الرّوح من عشق للنبي محمد (ص) تمرر حنان اليقظة على العيون وتحفزها بالعودة المبكرة إلى ديارها سالمة.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل التاسع

الكُميت ، قريباً من سوادِ مَيسان

في الصباح فطرنا بخبز الرّز، وشربنا لَبَناً أتى به عابر سبيل نذراً، ثم بدأنا المسير، ولم أسأله؛ لأنني أعرف أنّ ما جرى في الليل هو ذاته الذي جرى في الليلة السابقة، وحين سألت في الطريق الصيادين على ضفاف دجلة عن المدينة التي ستلاقينا، قالوا: إنها قرية الكميت، وما عرفته عنها أنها قريبة من ضفاف شط دجلة، وأنها حملت التسمية لاحقاً، مقرونة بالشاعر العربي نسبةً إلى الشاعر العربي الكميت بن زيد الأسدي، وهي، عند وصولنا إليها بعد مسيرة نهار بطوله، لم تكن تسمى الكميت، بل إن كلّ القرى الأخرى كانت تسمى بسواد ميسان، وبعضها ترتبط باسم واحد من مشايخها.

وحين سألته عن المكان وصاحبه، قال: إنه يستحق التسمية، مع أنّ الودّ الذي بيني وبين شعراء بني هاشم مقطوعٌ، إلا أنّ الحق يقال: إنهم يتقاربون في سلوى المحبة والمديح مع تلك السلوى التي تسكنُ الصوفيين، لكنهم يذهبون إلى اثني عشرة فقط، بينما نحن نذهب في المديح إلى كلّ هذا النور الذي يسكنُ السماء وجبتي.

قلتُ: لم أسمع به، ولم أجد له أثراً عند الوراق!

قال: بسبب إعجابي به عرفتُ عن الكميت الكثير، وقد ولد الكميت في أيام مقتل الإمام الحسين سنة 60 هـ، وينتهي نسبه إلى قبيلة بني أسد بن خزيمة من مضر. قيل: إنه كان ذكياً حاضر الجواب منذ صغره، كاتباً حسن الخط، خطيبَ بني أسد، فقيهاً متضلعاً بالفقه، فارساً، شجاعاً، سخياً، حافظاً للقرآن.

وروي أيضاً أنه قال لولده المستهل: إذا متُّ فامضِ بي إلى موضع يقال له: مكران، فادفنّي فيه، فدُفنَ الكميت في ذلك الموضع، وكان أوّل من دفن فيه، وهي مقبرة بني أسد.

وأظنُّ أنّ هذا المكان الذي نشارف في الوصول إليه كان مقابر لبني أسد.

قلتُ: وهل لديك عنده شفاعة.

قال: لم أطلع على شعره؛ لأنه مؤثر في عمق مودته لأئمته، ولا أعرف إن كنتُ أشعر منه، أم هو أشعر مني، ولكن المقابر فيها بركة حزن نيامها، وأظنُّ أنني اليوم سأنام عميقاً، فلا رغبة لي بمنادمة شاعر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شاكسته في السؤال وقلت: هل لأنه شاعرٌ مجيدٌ في مدح آل البيت؟

قال: لا! أنا مع الشعر أنطقه كحاجة إلى الوصول، فلا أسمعه إلاّ من أفواهٍ تعرف أنّ الله برمش العين يتدلى نوراً ومهابة وغراماً.

قلت: ولماذا تعرف عنه الكثير؟

قال: لأنني في مصائر من ماتوا مقتولين شهداء؛ أي كانت مواقفهم تشبه ما سألاقيه، فهو مات شهيداً بسيوف يمانية وفي ديوان الوالي، وأنا سأموت بمقصلة أقامها نجار الخليفة من أجلي.

قلت: وتتنبأ بطريقة موتك؟!

قال: هو أخبرني القصة، وأعرف أن رؤيته وحكايته ومنادمته حقيقية.

قلت مستغفلاً رده: تقصد الكميت؟

قال: من أخبرني هذا المسكون بلحظته النور والسرور والنغم.

قلت: إنك تقصد من هو فوقنا. كن أرضياً وتعامل مع الأمر بواقعية لأفهمَ منك وتفهمَ مني.

قال: قبلت أن أكون معك مسافراً، فقط لأنك لا تغتاظ من شكل مودتي، فلا تبتعد في الفهم عن إيماني.

قلت: أنا لست صوفياً، ومتعتي معك موسيقى الكلام وسياحته، وإعجابي يكمن في أنك تصنع هدوءاً لروحك، ولكنك تشطح فأتحاشى أن أنجر لك، ومع هذا أنا أحبك.

قال: من يحبني له في بدني رجفة قلب، وهو واحد، وغيره رفاق ظلٍّ ومعرفة.

قلت: أياً كنت بالنسبة إليك، فأنا دلفت معك الطريق، وكنت أسرق حبة لفمي كلما أرسلت لك وردة الصباح عنقود العنب.

قال: تلك لصوصية الود شاركتني إياها وقبلت، فلندفع في الطريق خوات دابتنا، فأنا لا أشتاق إلى أمكنة شواخصها شهداء؛ لأني أتذكر معهم طيف القادم الذي تتشابه به المصائر.

هم لهم الله الآن، ولاحقاً سيكون الله لي، ولتلك التي كانت تمنح العنب مذاق عاطفتها أقول: قريباً من عطرك أضع أمنيات رئتي.

قلت: لكنها بعيدة الآن، والعطر لا يصل الرئتين إلاّ بمقدار مترين أو ثلاثة.

قال: في هذا أنت متوهم. بعض العطر يصل إليك من آخر الدنيا.

فقلت: أي عطر هذا!

قال: عطر الشوق والحنين.

قلت: ولكن لم ترها أصلاً؛ وإنما كنت أنا رسول الوصف لملامحها.

قال: ومن وصفك لها، وأنت تجيء بعنقود العنب مرسالاً منها، شعّ بريقها في داخلي.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

الفصل العاشر

ميسان.. من بابل إلى أفياء البستان

بين البريق وخطوات الطريق تمشي الراحلتان، وقد اقتربت من صدورنا نسائم غابات القصب بعد أن كان لنا النهار بطوله. نمنا في ليله تحت أفياء قرية كبيرة هي ميسان الباقية من أطيان بساتين قديمة، وقد قرأت عنها عند الوراق حين جندوني في حروب الزنج، وقالوا لي: ستذهب إلى جهة ميسان لتقاتل الزنج في أرض القصب، فيها أكثر من النخيل وسنابل القمح، فعرفت أن ميسان هي تاريخ دويلة نشأت في جنوبي أرض بابل تحت حماية دولة السلوقيين (311 ق. م - 247 ق. م) عندما ضعف شأنهم في الحقبة الواقعة بين عامي (223 ق. م - 187 ق. م).

وقد استقلت ثم تدرجت في سلم القوة، وأصبحت دويلة مهمة حكمها ثلاثة وعشرون ملكاً ما يقارب ثلاثة قرون ونصف، وبالتحديد ما بين عامي (129 ق. م - 225 ميلادي)، وقد أدت دوراً بارزاً في الأحداث السياسية والاقتصادية في العراق في حقبةٍ من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إلى الربع الأول من القرن الثالث الميلادي، وميسان في الآرامية تعني مياه المستنقعات (مي آسن).

حين ذهبت لاحقاً بطلب من أمي لأفتش عن مصير أخي المساق جندياً في حرب المدافع والراجمات وجدت المكان حاضرة لمدينة تدعى العمارة، وحين نزلنا فيها عند ظلال نخيل بستان على ضفاف دجلة. سأل الحلاج مضيفنا، وكان رجلاً بشوشاً وكريماً، إنْ كان في المكان مزارٌ قريبٌ لوليٍّ أو صوفي؟

قال: نحن حين تسكننا نية الزيارة نذهب إلى مرقد نبي اسمه العزيز، وأغلبنا يذهب إليه بالمراكب؛ لأنه يقع على امتداد دجلة التي ترتوون الآن بمائها.

قال الحلاج: ونحن قصدنا الوصول إليه.

قال صاحب البستان: وأتيتم من بغداد لأجل نذر وعندكم الكاظمان!

قال الحلاج: ما عندي هو ما يبهج قلبي، إن كان النور الفوقاني أو نور القبة.

لم يدرك الرجل المعنى الصعب لكلام الحلاج، ففرحت للرجل على بساطته وقلت: نحن شبعنا زيارة من أصحاب القباب، وصاحبي يعتقد أن للعزيز مرقداً يستحق أن يُزار.

قال: نعم يزار؛ لأنه لا يخيب طلباً لصاحب حاجة.

قال الحلاج: وحاجتي عنده ليل تصفي فيه النجوم لقصيدتي.

ضحك صاحب البستان وسألني: إن كان برأس صاحبي شيء من الجن؛ لأنه لا يفهم ما يقول.

قلت: لقد تعود أن ينطق هكذا.

قال الحلاج: أدعو الله أن يكون النبي الذي نذهب إليه سبباً في سعادتنا، وحسبت دجاجته آتية من الجنة بطيران حر وتدخل بطني.

قلت: كلْ، يا صاحبي، فأهل هذه الأرض كرماء.

قال: وللكريم من عطايا ربه ما تصنعه قصائدي من بهجة الشوق إلى المنى.

قلت: تناول الدجاجة واهضمها ببطنك، ثم اهضم المنى. يا معلمي! نحن جائعون، وفي الصباح ستكون الأهوار قريبة منا، وربما مبيتنا في ضريح النبي.

رجع يدش الفخذ الأول من الدجاجة، ويتمنى أن يتناول الفخذ الثاني، وقال بمكر: التمر لذيذ لصحة المسافر، خذ هذه حصتك وحصتي، واترك لي فخذ الدجاجة الثاني.

ضحكت وقلت: هو لك.

قال: خرمنا من الأفخاذ، وسكننا الوهابُ الرزاق والعشقُ ونوزه الأخّاذ.

تركنا الرّجل عند مائدة طعام أعدّها لنا، وكانت خبزاً وتمراً ولبناً، وفخذي دجاج.

علسهما الحلاج، وهو يعرف أنه لم يذق اللحم منذ سنين، فقال: حسبني مجنوناً.

قلت: قرأت للصوفيين، وليس لديهم تلك الإباحية في الصورة. هل أتعبتك الطرقات فصرت إلى شهوتك مفضوحاً، وخارج نطاق حلم قلبك وحكمته؟!

قال وقد ظننته ثملاً: الأفخاذ التي لم نذقها منذ سنين تهيج في البطون حنيناً.

الآن أدرك أنّ الابتعاد عن التكية تفقد الصوفي بوصلة التقدير إلى عاطفته، وهذا ما لم يحدث معه لاحقاً، عندما يرفع الحلاج من التكية إلى الزنزانة، ومن الزنزانة إلى المقصلة، وتلك المسافة وثقها من كان يحرسه ويقول: كان يقول ما لا نسمعه جيداً فلا نفهمه، وذات يوم قربوا له الزّغيف والماء، فقال: أين فخذ الدجاجة؟ أريد أن أستمتع.

ولكن ما يحدث الآن قبل صلبه بعامين، حيث أراد أن يضع نبض قلبه على باب ضريح العزير كفارةً عن كلّ الذي أجهر به وخسب عليه تابوهاً وكفراً وزندقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي المكان ذاته سيكون لي مشهدان: الأول: عندما ذهبت مجبراً لأحارب الزنج؛ لأنهم، كما يقول الواثق بالله، يريدون أن يؤفرقوا البصرة، ويلحقوها بزنجار وموزنبيق وبوركينا فاسو. وأظنُّ أنه دفع في مقاومة ثورتهم بهذا الاتجاه الخوفُ من أفرقة البصرة، بينما كان الزنوج يحملون شعارات الحرية والتخلص من الرّق والعبودية.

كان المعلم يطلبُ مني أشياء حسبتها تسلية له من مشاق الطريق عندما تكون قاحلة، ولا تجيء لناظره بمسرة في مخالطة ما يودُ هواه، وأحسب له أنه متى شعر بأنّ البساتين تقترب، ويسمع أصوات النواعير وزقزقة الطيور يهلُّ عليه شيء غامض، ويتلو جديداً من هوى قلبه في أشعار يُشعر السامع بطربها الروحي والوجداني. بعضه أستطيع أن ألحقه وأدونه، وبعضه أتركه للسماع والحفظ، لكني سرعان ما أنساه، فمع كلُّ قرية جميلة على ضفاف دجلة أجده قد امتلك روحاً أخرى في المنادمة كأنه يطلب الأذن في الوصول اليه!

فأحاول أن أنبهه على أن هذا تطور في رغبته سيسرع في موته، فيريد أن يتهجى ما يخيل إليه من إيحاء يأمره ولا يترك له الخيار، وذلك هو أصل اللذة في الإتيان بما هو قادر على أن يأتيك أنت فقط.

في سفري معه أكتشف أنّ الحلاج خطير في ولعه وهواه، وأيقنت أنه في مزاجه المتطرف في الاشتياق أقرب إلى الكفر من هوى بعض الدراويش، وكان يتلقى منه لهذا الرأي زعلاً ومجافات، ولأنه رفيق سفر أقتربُ منه وألاطفه بالكلام فيشعر أنه اعتذار مني، مع أنني لم أعتذر، ويبدو أنه يحتاج إلى نديم سفر يعرف طرقات مقصده، فكنت أنا.

حتى صاحب البستان الذي استضافنا في مدينة ميسان، قبل أن تصبح العمارة على يد الترك، كان قد تضايق من عباراته التي كلما يطلبُ مني تفسيراً لها أحاول أنْ أبسط الكلام وأجعله عاماً.

لكن الرجل قال: دراويش الأهواز وهمدان وشيراز وأصفهان حين يأتون لإقامة حلقات الذكر عند أضرحة شواطئ دجلة، وكان يقصد علي الغربي والشرقي والنبي العزير، وغرفة طين بناها صوفي من أهل البصرة قرب شجرة آدم في القرنة، حيث يلتقي نهرا دجلة والفرات، وحيث يقال: إنّ نوحاً حرّك السفينة من نقطة في هذا الملتقى. عند هذه الأضرحة والمقامات تقام حلقات، وكان بستاني من بعض محطات سفرهم، حتى الذين يأتون من سامراء وبغداد، وهنا حلقة تقترب بالودّ من مصيبة عاشوراء مقرها الكوفة أيضاً، كانت تنام ليلتها وتصعد جنوباً مع النهر.

يقول البستاني ويرفع صوته ليسمعه الحلاج: كل هؤلاء يقيمون لهم حلقات ودوائر ويرددون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسم النبي والصلوات عليه.

ردّ الحلاج: لم ولن أكون شبيهاً لهم، ولن أقلدهم، فإن أرادوا هم تقليدي فليقلدوني.

قلت للرجل: هو يعتز برؤيته ونظرته إلى مَنْ خلقه.

صاح الحلاج: هو خلقني لأكون معه.

انزعج الرّجل وقال: أظن أنّ صاحبك كافر! ولولا أني قبلت أن أستضيفكما لطردتكما من بستاني.

صمتَ الحلاج مثل كلّ مرّة؛ لأنه لا يحبّ المرادّدة إلاّ فيما يشغل عقله وقلبه، أما أنا فاعتذرت للرّجل، وهمست له حتى أرضيه وقلت: صاحبي هذا يدخل في غيبوبة جنون.

فردّ عليّ بوعي تفاجئ به وقال: المجانين لا يقتربون من سدرة المنتهى، وصاحبك بثيابه الرثة هذه يذهب إليها، وهذا مخالف لما ينبغي أن يكون عليه المؤمن الذي قلبه نظيف وثيابه نظيفة.

نهضنا صباحاً ولم يكن مضيفنا موجوداً؛ لكنه ترك لنا رغيفي خبز وإنائي لبن، وقد علكهما الحلاج كأنه لا يعرف غضب الرّجل علينا وانزعاجه منه، وقال: كنتُ أتمناه أن يترك لنا قليلاً من الدجاج.

قلتُ له: لو كنا في مدينة ومضيفنا حضري وسمعك لأتى إلينا بالعسس وزجّنا في السجن؛ لكنه فلاح طيب وفطري، ويعرف أصول الضيافة جيداً.

لا أعرف لماذا يتجلد قلبُ الحلاج في هكذا مواقف! ولم يقل حتى كلمة «شكراً» لمن يستضيفه، فتقدمت بحركة لا إرادية دفعته من كتفه وقلت له: هيا! لنمضِ في طريقنا، وأنا متألم جداً؛ لأننا أزعجنا صاحبَ البستان، ومع هذا كان كريماً معنا وطيباً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الحادي عشر

المندائيون وقلعة صالح

طوال الطريق حيث أخبرته أن مبيتنا سيكون في قرية على الجانب الشرقي من دجلة تدعى قرية صالح.

فقال: كلُّ بناء طين هو من ذات رعشة اليدين.

فعرفت قصده؛ أنّ الجنوب الذي يبني كلّ بيوته من الطين هو جنوب متشابه، وما عرفته عنه بغرابة أنه لا يبني موقفاً على حدث يواجهنا في السفر، لهذا لم يغتظ من ريبة صاحب البستان الميساني، ولا بمشاعري الغاضبة عليه، وأنا أسحبه بقوّة من كتبه لأحثه على ركوب الحمار وبدء المسير، وأخبرني أن السفر تضاد مع لحظة الغرام؛ لأنه يتحرك، بينما الغرام يتوسد، وأنه مذ أن سمع قولاً للحاج بن يوسف الثقفي يقول: لولا فرحة الإياب لعذبت أعدائي بالسفر، والحلاج يحبّ الثبات على التكية وانتظار عنقود العنب والقدر النوراني الذي يشفيه بذكراه.

وكان علينا الوصول مساء إلى قلعة صالح، فلم تكن هي حين وصلنا إليها تسمى بهذا الاسم، إذ كانت تسمى بـ(الشطرة)، ثم سميت (شطرة العمارة) تمييزاً لها عن شطرة المنتفك، ويأتيها التاريخ بهذا الاسم الجديد بعدنا، بينما كنت أزور أخي بوحدته السرية الكيميائية، وأتذكر مبيتنا فيها، أنا ومعلمي الصوفي، وأقول: معلمي لأني أدوّن ما يتلوه وأحسّه تثقيفاً لغوياً وروحياً لما تعوّدت عليه من لطافة الإحساس عندما كانت وجوه الجواري تسكن صباحي ومسائي، وكانت الجارية الحلبية أجملهن.

فسألت إن كانت هي شطرة العمارة، فقالوا وقتها في عام 1884 سميت بـ(قلعة صالح) نسبة إلى (صالح سليمان النجدي) الذي انتدبته الحكومة العثمانية لمحاربة العشائر التي امتنعت عن أداء الرسوم، وهو الذي أنشأ القلعة في الموقع الذي كان قد عسكر فيه، فسميت بهذا الاسم، وهو الذي أشرف على إسكان مجاميع من الناس على ضفتي نهر الكرمة الذي يربط نهر دجلة بنهر المجرية.

فحين وصلنا إليها لم تكن سوى قرية صغيرة لعرب يزرعون قريباً من ضفاف النخل محاصيلهم، وهناك أيضاً ثلاث قرى لطائفة الصابئة المندائيين، يعرفهم معلمي جيداً، فأشار عليّ حتى لا يتعرض إلى ما أحرج منه في ضيافتنا السابقة أن نكون ضيوفَ بيت من بيوت المندائيين، فأشرت إليه أن نبحث عن بيت كبير كهنتهم في هذا المكان حتى يأنس للحديث

معه وينادمه بما يعتقد أنهم يعرفون في الأفلاك والرياضيات، وأن الكلام في سزه الكهنوتي فيه روحانيات لا تحصى تُسمى الغنوص.

سألنا عن بيت رجل الدين، وكان اسمه زهرون بن يحيى، وقد رحب بنا الرّجل وأخبرنا أنه يعرف عن الحلاج مِمَّا يُذكر في قصص المسافرين الذي يحلّون ضيوفاً عليه في مسيرتهم إلى مرقد العُزَير الذي لا يبعد عن قلعة صالح سوى مسيرة نصف نهار.

قال الحلاج للكاهن المندائي: هل أخبروك عني أني أدنس في التمني، وأمارس السحر والشعوذة والشرك؟

قال الرّجل بخجل وخلق، شعرت أنه متطبع عليه وطائفته كلها: لا يا شيخ! نحن لا نؤكد في السماع قناعة عقولنا، ولا نناقش خارج ما تقيمه طقوسنا، وأعرف أنك تنتهج الصوفية بما تظنها وصلاً مؤكداً مع السماء، ونحن مثل المسلمين؛ إذ إن وصلهم جبرائيل، وكان ملاك رحمتهم، وأظن أنك تعتقد بذلك ما دمت مسلماً، ونحن لنا ملاكٌ في الوصل اسمه زيوا؛ هو ملاك النور.

هذا الملاك تحركتْ إليه أجفانُ الحلاج، فقال له الكاهن: هو لا يأتي إليك، فنحن مغلقون في معتقدنا، لا ندخل غريباً، ولا نذهب إلى غريب.

فقال الحلاج: إنما هو وُدٌ أبادله معكم لأقف على أشياء أخرى بصفاء أرواحنا عندما يسكنها الإلهام ويصير الضوء بضاعتها.

قال: خذ ما يجعلك مسالماً، ولا تقترب من الرّب الفزّكّي؛ لأنه بعيد وقريب، ومقدار الرّحمة فيه هو ما نتمناه ليحفظنا من أي شرٍّ ويكثر علينا الرزق، ويديم العافية، ومن كان منا في حياته مستقيماً وهادئاً وعطوفاً، فإن الفردوس له قيامة، فلماذا لا تصبر وتنتظر قيامة الفردوس؟! فأيوب كان صابراً، ويسوع كان صابراً، ويحيى كان صابراً، ويونس كان صابراً، ومحمد كان صابراً.

قال الحلاج: هؤلاء الطيبون عرفوا الصبر؛ لأنهم امتلكوا مواثيق من أجل الناس، وأنا صبري هو من أجل بهاء روحي.

تركتهما لمنادمة الليل، وقد كان مكان نومنا خارج سور القصب لبيت الكاهن.

قدّم لنا الطبيخ بنوع يحبه المندائيون، ويسمى «رز الشتال» كان مخلوطاً باللبن الخاثر، وهناك إناء فيه تمرٌ. وقد استحسن الحلاج مائدة المندائي وأكل كثيراً فمازحه الكاهن قائلاً: إذا أردت أن تتصافى مع النجوم في الليل للنظر إليها فابقِ قليلاً من الجوع في بطنك، ليقترب

CamScanner الممسوحة ضوئياً بـ

الضوء بحاجته إليك وحاجتك إليه.

قال الحلاج: نعم سأجلب نصيحتك إليّ وأتوقف عن لذة هذا الطبيخ، فأن تذهب إليه وأنت جائع كأنك تريد أن تقول له سدّ رمقي، فبعض جوعي هاجس لغرامي.

قلت، وأنا في فراشي على بُعد ثلاثة أمتار من جلستهما: لا تشطح، يا حلاج، فنتعرض إلى ما تعرضنا إليه من صاحب البستان في عمارة ميسان.

قال الكاهن: دغه! فليس كلُّ ما أسمعه أولَغُ فيه.

قال الحلاج: ولكني أرتاب ممن لا يعشق كلامي.

قال الكاهن: كلامك قد يليق بإلهامك، وأنت من يتحمل نتائجه فكراً وشطحاً وقناعة، أما أنا فسلامي مع الله عبر الماء والطير والصلاة وبياض الثوب.

قال الحلاج: وتعيرني بغبار الطريق على ثوبي!

قال الكاهن: ولكن رفيقك ثيابه نظيفة، وهو معك في السفر!

قال الحلاج: النظافة في الإحساس به.

قال الكاهن: وهو لا يريد أن ينظر إلى عباده بما أنت عليه من ثياب، ولتكن منادمتك إليه بقلب نظيف وثياب نظيفة.

قال: لن نصل إلى مشترك؛ لأن اللون الذي أصطبغ فيه لا يشبه لونك.

قال الكاهن: وبهذا أنت تحتاج إلى كفارة يا شيخ. مرّ الكثير من الصوفيين، وهنا مثلك شربوا اللبن وأكلوا الطبيخ؛ لكنك لست مثلهم تجاهز بما ليس من حقك.

قال الحلاج: عرفت عنكم أنكم ميالين إلى الصمت، ولا تجادلون في البوح سوى منكم، وها أنت تتجرأ وتقترب من مناي، لا تسلبني بهجة الجلوس معه!

استغربت فأنا لم أسمع كلمة حادة من الحلاج طوال نقاشاته مع مَن صادفونا في الطريق من بغداد إلى هنا.

اقتربت منه هامساً وقلت: معلمي! لا تستضعف مَنْ تشعر أنه طيبٌ أكثر من اللازم، فهم ضيوف عندهم.

قال: اشكره، لكنه يؤلم في القرين ويعتقد أني وَسِخٌ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الكاهن: نحن لا نسيء إلى الآخرين في هكذا أوصاف، بل إن اتحدت عن بدهية، فحتى تكون مع الله ثوبك نظيف وبدنك وروحك.

قال: لتعذرني على ما أنا عليه، فلا أريد لأي عطر أن يشاركني تعطري به.

قال الكاهن وقد قام ليغادر: في الفجر تكون راحلتكم إلى ما سعيتم، وأنا معك لا أتفق، فما سمعته عليّ لن أصدقه. يا شيخ! المهالك طُرُقها واضحة، وأنت الآن تراها جيداً وتتعجّل إليها، وأظن أنّ الكثير من راغبي سحر الكلام يريدونك أن تعيش، ولكن ليس بهذا الولع الذي يجعلك تطلب ما لا يمكن أن تناله ليغفر الله ذنباً أنت تريد به أن تمسك ما ليس لك، وتريده مفرداً عندك، وهو في الحقيقة مشاع للجميع، وقلوبنا تحسّه وتراه ولكن عن بعد.

ونحن ندفع براحلتين، وقد غيض مني أن الصوفي لا يَسهُل السفر والعيش معه، فقد حصلت منه طوال محطاتنا على إحراج ومداهرة ونقاش، لا كفة تميل فيه ولا موازنة، فكلُّ الذي كان كانت نرجسية الحلاج فيه طاغية ولا تريد القناعة بأن تقترب منه من أن التقرب إلاّ الله ينبغي أن تكون بقلب نظيف وملابس نظيفة، وكان يقول: القلب بنظرته وأمنيته زرقةٌ للماء وبياضٌ للودّ، وما عليك ليس جبتك بل كتلة النور.

ولكني توزّطت بالسفر معه، وحين نبتعد عن القرى أعود إلى قناعة أن المتعة تبقى تاريخاً جميلاً إن كنتَ مع الحلاج رفيق سفر، ويعود هو إلى ملاطفتي بالكلام، ومرّات يقول لي: يا بنيّ! فأحسّ برضاه عني، ونسيان كل الوجوه التي ناقشته في محطاتنا التي تركناها وراءنا، وهو يقول: إنْ غدنا إياباً إلى المحطات ذاتها تحاشى أن يكون مضيفنا هم أنفسهم، إلاّ الكاهن المندائي، فالجلوس معه فيه صفاء ومعرفة على الرغم من اختلاف رؤيتينا.

أحياناً في تذكري للحرج الذي تعرضتُ له في محطات سفرنا، وعناده وقساوة صمته واستنكافه عن الردّ في بعض المرات، وإعطائه قفاه لمحدثه حين لا يعجبه نقداً من محاوره، أفكرُ أننا عندما نصل إلى مقصدنا وأتمّ هدف الرحلة، أن أتركه في المكان، ويبقى فيه متوسداً دكة النبي، وقدمت له خدمة إبعاده عن أذى من يتربص به في بغداد، وبغريزته العجيبة يقرأ ما أفكر به، فيخبرني أنّ من يترك رفيقه في سفر تتركه الملائكة يوم القيامة يبحث عن قدره في الظلمة ومن دون شموع.

وأخبرني أنّ ساعته معروف حينها وأجلها وهو سيعود إليها، وقال: أعود إلى بغداد بعد أن تتزود روحي بزاد ومراد، ليخف عن جسدي ألم آلة العذاب الذي سأذهب إلى نوره بها.

ولأني أعرف أنّ الصوفيين يواجهون الصلب في الحكم وإقامة الحد عليهم، تمنيت له شهادةً

تشبه صورة يسوع في موته، وأن يُعلّق على بوابة النبي الذي بدأنا نقترب من القرية التي يسكن فيها هو وضريحه؛ لكني أدركتُ أن سكنة المكان من ريفيين ومعدان ومندائيين لا يعرفون إيذاء ضيوفهم، وسيجيرونه من أذى يلحقه حتى لو أرسل الخليفة كل جيشه ليجلبه إلى بغداد، وينال ما حكم عليه القضاة أن يرمى في الزنزانة في انتظار التوبة، وإن لم يتب سيكون الصلب حكماً عادلاً لمن يعتقد أن الله دخل الجبة ليستريح بنوره عند حدود فؤاده.

لكنه قد قرأ خيال الصورة أن يكون مسلحاً ومعلقاً عند بوابة الضريح، فقال: لا أحبُّ التشابه والتقليد في الاستشهاد، فلكل شهيد طريقة موت خاصة به.

قلت: ولكن شهداء الحروب التي عرفتها في زمن الزنج وعرفها أخي بعد مئات الأعوام تتشابه فيها أدوات الموت، وأغلبه السيف أو النبلة، أو الرمح لشظايا مدافع، أو رصاص قنص.

قال: الحرب صممت أن تجعل الموت بتلك الأدوات، وليس كل من يُقتل فيها شهيداً، فالظالم الذي يعلنها ويذهب إليها جنوده برغبتهم هم ليسوا شهداء.

قلت: أعرف هذا، وأحمد الله أن أخي أجبر عليها واستشهد فيها.

قال: وأنا لا أريد أن أجبرَ على موت أتمناه، ولكني حتماً سألاقيه برضى ما في روحي من بهجة أني من خلاله سألتقي بخالقي، وسيعرف من دمعتي أني مشتاق إلى حضرة العلا البعيد، ولم أهرب من بغداد بسبب ما أعتقد به أنهم يعدون لنهايتي بمقصلة، بل أني احتجت من النبي إلى سياحة أخرى في التفكير، وأنا لم أنقل قدميّ خارج بغداد منذ زمن، وما اقترحته علي وجدته مقبولاً؛ لكن بعضاً من محطات الطريق كانت ثقلاً على هدوئي ونقاشاً لا يرتقي إلى لحظتي.

قلت: ولكن الكاهن المندائي كان منطقياً في رؤيته، وقد لا يخالفك إلاّ حين تشطح وتتطرف في امتلاك النور لتضعه عندك، والنور هو في قيمته ومعناه ووجوده مشاع للجميع، فمن دونه ستعمُّ الظلمة والطغاة وشرائع الموت.

قال: ما يسكنني إيماني، وهذا الإيمان يختلف عن إيمان الكهنة؛ لأنهم يسعون إلى النور بنذور، وأنا أسعى إليه بنبض قلبي.

واستغربتُ منه أنه صار يتلو شيئاً من نورانيات الصابئة، وهو يعرف أن ضوء قبة النبي التوراتي بدأت تلامس حافات رموشنا، قال، وقد اخترق الأزمنة بنباهة وحلم كأنه يعرف أنني ذات يوم سأجلبه إلى عصر آخر وأفتح له صفحة على الفيس بوك، وسيشعر أن من بين أصدقائه

رجلَ دين مندائي بدرجة (كنزفرا)، ليتناقشا، ويعيد الحلاج إليه رواية ما حدث له مع الكاهن المندائي زهرون بن يحيى في قلعة صالح، فيخبره (الترميذا) الشاب أن هذا الكاهن هو من شجرة عائلته، وأنه جدٌ قديم له عاش في العصر العباسي الثاني، وحتى يسيطر الحلاج على مهجة الشاب المندائي المتدين، ينادمه بنصوص صوفية يمزجها بحسٍّ مندائي ويتخيل معها كيف تتبدل العصور.

استغرب من هذا البوح وتداخلِ أزمنته عندما أخرج الحلاج من جبته ورقةً وقال: أنا نطقته، ولا أعرف من دونه.

قلت: ولكنه مكتوب بلغة المستقبل!

حيث أخذتني أنت، ومن ضمن مدوناتي ما ارتد به أن أعلم أصدقائي في ذلك العصر، إنني فاهم ما يفهمه الكاهن المندائي الذي استضافنا في قلعة صالح، والذي في النهاية أراد التخلص منا.

كان النصّ معنوناً باسم (التصوف المندائي)، واستغرب أنه فهم روحيٌ عميق لعصر لم نذهب إليه بعد، وربما أجبره عند مقام النبي أن يبقى جليسه ليموت بهدوء روحه، وليس بهدوء المقصلة، وحين أدرك ما أفكر به عاد يقول لي: أعطيتك بوحاً مستقبلياً فاقرأه، فغيرك الآن يتمتع بقراءته، وأعرفه أنه يقصد الترميذا المندائي الشاب.

وسوية أنا والشاب المندائي نضع نصّ الحلاج الذي أهداه إلى المندائيين حتى يحسسهم أنه يمسك بوح الزمن كما يريد وأنه قريب معهم، وفي كلّ عصورهم:

((قطب الأرض هو دموع الأنبياء. لحظة عودة نعوش الشهداء بعربات الورد ونخب الكؤوس. هكذا يرى المندائيون صورة وجودنا عندما نعيش قلق غرام النساء، أو خوذة الحرب، أو المنفى، إنهم ضنّاع اللحظة، وحتماً صانع اللحظة أجمل من ألف ميعاد، فأتبع ظلك خلفَ النافذةِ، وكأنك قمر آتٍ بمساعدة مهرب اللاجئين! يدخل في قاطرة قلبي دون تذكرة، وتذكرة الصوفي في كلّ سفرٍ وجه من يشتاق إليه، لهذا غارق في متاهة البحث عن عشه القديم، آت كالسنونو بعد ألف عام من الغياب، يبحثون عن عطر جارية في متاهات خرائط مدن خلفاء لا يرحمون، حين يكون الصوفي بلاغته القبلة، وتدوين ما يرتجف له القلب، ومن يرتجف قلبه ليس له سوى الله من يحبه. آت لأبحث عنها لتكون الوسيط الذي يجعل الكحل طوابع بريد، ومتى تصل إلى المقصود أعطيها من رغبتي هذه المهجة والكلمة، بينما آخرون يريدون عينيها.

هي لكم مضيئة كتعويذة مندائية في قلب نبي من أهل الكفل، فكما تعلم أنت الشاب الذي

رافقني في رحلة المتاع أشعر أني سأغير وجهتي ونمضي إلى الأمام بعيداً عن ضريح النبي الذي لم يجد له موتاً في بابل، وبفضل موت الطرقات العابرة نمضي إلى أرض آدم وبالشجرة نستظلّ، فربما تخلصني من صلبٍ ينتظرُ هذا الجسد الذائب في كلّ رعشاته من عشق النور.

أشار الكاهن في قلعة صالح إلى جهة أخرى يبتدئ منها الخلق:

((لقد نسيت أمي التي أنجبت هذا الصوفي في بيت من كاشان غامق في البيضاء، وسأذهب إلى أم تدعى حواء.

لهذا في العودة إنْ كُتبتْ لنا عودة سأشكرُ الشيخ المندائي بشدّة، فهم يكتبون متعتهم الروحية في كتبهم، وبقية الخلق يكتبونها في الأراجيل، وكما ترى أنّ الفرقَ شاسعٌ مثل المسافة بين ديك يتثاءب وآخر يفترش الدجاج افتراساً؛ لهذا، يا تلميذ الطريق، كلُّ طريق من دونِ هاجس ورمش امرأة لا يسمى طريقاً، سأرسل التحية لمن تحت شاربه مقص النجوم.

التحية لمن تحت أجفانه خيوط الوصل، التحية لمن في خاصرته وجع العشق لعصفورة من صباحات عناقيد العنب، التحية للرجل الذي كان غيضه ابتسامه، ومندائيته جنح حمامة، فهو وحده من كتب ذات يوم: اللبن الرائب نتناوله في لحظة قراءة شيفرات المندائيين التي تحولنا إلى مركبات فضاء، وطيور حجل.

إنني أعرف طواسينهم المخبأة في ألواح الرّصاص مكتوبة بسرّ وارتعاشة وحذر، المندائيين الذين يرون في السبعة صانعة الدمعة؛ ففي نهاية كلّ أسبوع، سبت أجفانك يطلّ، فتُقرأ التوراة وقرآن مكة وتعاليم يحيى، وفي كلّ سطر فخم يجد الدارس شيئاً من روح المكان.

هناك في بقعة الضوء والمياه تركنا نظرة تريد انتظاره، نعم في كلّ مكان كنت أنتظره، وآنية بيد الكاهن تسابقنا على الفهم.

إن نوره رذاذ الماء وتعميد صباحات القصب، وأنا في القصبة لا أبغي إلاّ ناياً يعزف فرحاً بقدومه.

ستشعر، يا تلميذي، أنّ هذا متصوف رؤاه «فزكانه» ومع هذا فهو كشّاف ماهر، وما يكشفه لا يعرفه من أهل صباحات بغداد إلاّ هو، وهو هذا الذي لا يتأوه من عشق إلاّ بصفة النور، وأظن أنّ روح النور تكمن في رسالة غرام والردّ منها سرور)).

أجهد نفسي كثيراً وأنا أدوّن هذا الهذيان العجيب، والغرابة فيه أنني اكتشفتُ فيه ما تلاه، وهو في حالة هذيان وغياب عن الوعي، تشعر أنه آتٍ من ثمالة خمرها لا يحويه أيّ صنف في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أية حانة.

اكتشفت أنه بدّل وجهة سفرنا؛ فقلت له: أنا ذاهب إلى مكان موت أخي واستشهاده. فقال لي: ولماذا تضع فرقاً بين الموت والاستشهاد وتدعهما بغرض واحد؟! أخوك إما مات، وإما استشهد.

أما تلك لم تضع لي الإيمان بخيارين حول مصير أخي، إمّا مات أو استشهد، ولأنني أعرفه طيباً ومهادناً، ولا يجادل في أمور قد تذهب به إلى تهلكة أو سجن أو إعدام، ارتدى بدلة الجيش وذهب ليطيع أوامر التجنيد. أما ماذا تعني له الحرب، فهذا بزّه في أوراق تركها في دفترين هما كلّ الذي ورثته منه، بينما ورثت أمي راتباً تقاعدياً ونواحاً لكلّ ما سيتبقى من عمرها.

ومتى قربت إلى معلمي نُواخ أمي لينتعش منه شيء، أكتشف أن الصوفيين لا يحبون النواح، وأن البكاء لديهم خراب في اتزان ما يعيشونه، وحين سألته: ألم تمزقوا مرابٍ مع ما عليكم من ثياب بسبب نواح على ما تخسرونه بعاطفتكم؟

قال: الرّوح لا تنوح؛ بل تشهق، وحين تشهق يعني أنها تموت شهيدة.

وحتى يبعد صوت نواح أمي، وقد شعرت أن موسيقاه صارت تؤثر في حواسه، أخذ يحرك رأسه يميناً وشمالاً، والأرداف مع الرأس تتناغم، ولأنّ الجو حارٌ شممت رائحة عرق بدنه؛ فهربت منها وبقيت مع نحيب أمي، وهي كلما اقترب موعد استلام معاشها التقاعدي تقول: لولا الخبز لما اقتربت إليه، فيردُّ معلمي على صدى كلمات أمي ويقول: لولا النور لما دنوت منه.

ولا أدري لماذا تعاطفت مع إيمانه ورغبت في أن أمزج هذيانه بنواح أمي، فلا أحصل سوى على صورٍ مشوشة، بعضها فيها غياب لعاطفة هذا الصوفي، وهو يغمض أجفانه ليبحث في ظلمة عينيه عن شيء يفتقده.

أشعر أنه يرتاح كمن يستمني في تذكر أنثى تداعب ذكورته وشفتيه، وأتخيل أنه يطلب من وردة الصباح عطفاً لتبتسم إليه وتقدّم له حبة المشمش بيدها، وفي الجانب الآخر من فنتازيا الصورة تظهر أمي وهي تقف وسط الحوش تراقب نجمة بعيدة، وتتخيل أن قبراً لأخي فيها، وأن عليها أن تسافر بدمعتها إلى تلك النجمة.

وبين النجمة والنواح وصفنة هذا الصوفي فيما يريده ويشتهيه طعاماً لروحه وليس لبطنه، أشعر أنه يودُّ إجابتها، حتى لا تطيل في النوح وترفع من موسيقاه كي تحوله إلى سرير من نسائم حنينها إليه، وترفع به إلى قبر وحيد في مقبرة بواحد من النجوم التي تعطي الأرض لمعاناً فترصدها، شروقها وغروبها، مناظيز الفلكين، وصاحبي يرصدها بنبض قلبه.

ولأنني أعرف أنّ أخي مكانه الآن في مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف همست لها: لقد دفناه قرب الإمام، وهذا هو مكان الوديعة لمن يرحلون.

لكنّ أمي اختارت جواباً مثقفاً وفنتازياً تفاجأت بصورته وشاعريته وأمنيته عندما قالت: أريدُ لولدي الجنة، والنجمة مكان الجنة؛ لأنها في السماء.

قال الحلاج، وقد أعجبه ردّ والدتي: هذا يعني أن التراب منازل الهياكل العظمية، والنجوم منازل الأرواح.

وأعتقد أنّ أمي، وهي تسمع ما قاله الحلاج عن القبر والنجمة، سترفضه وتعيد تصليح عباراتها وتقول: عند علي العظام والأرواح أمانة إلى حين تحين الساعة.

قال لي: أمك تتدفأ بعاطفتي، وتأخذ أخاك إلى الفضاءات العلا، ثم تتدارك الأمر بما يسكنها من قناعة عشق الإمام، فتعود بقبره إلى الأرض، وأنا أعرف أنّ معلماً قال لي: لا تنقلوا القبور؛ لأنّ أمكنتها تنتظر مصيراً وحساباً وقراراً لمن يقرر.

قلت: هو الله إذاً!

قال: وهو من سيجمع أشلائي بجبتي ذاتها حين يقرر مع جرمهم.

قلت له: أمي لا تفهم من تلك التحولات سوى أن منكراً ونكيراً سيجيئان في الليلة الثانية بعد أن ترتاح الروح ليوم، وتزيح عنها بكاء المشيعين ونواح الأحباب.

صعدت فيه نشوة مفاجئة، واهتزّ بدنه وقال: تعجبني عبارة «نواح الأحباب».

قلت: ويعجبني نواح أمي.

قال: هي وضعت قبره في نجمة لا يتطلب الوصول إليها سوى إغماضة ودمعة عين؛ لكن الطريق طويل بين بيتها ومقبرة وادي السلام.

هل تدرك أنّ الصوفي، حتى يلغي المسافات، يضع أمانيه في أفق يفرضُ فيه أن النور منجمه هنا؟ الشموع والقناديل والمصابيح وحتى خدود الجواري لا تصنع ضوءاً مثل الذي يأتي من أفق تكمن فيه أنواز شموس أو بهجةُ أقمار، لهذا أخبز أمّك أنّ النور قبل النواح، ولنكمل سيرنا.

لكني لم أكن أريد مفارقة وجه أمي، خصوصاً عندما تنوح اشتياقاً إلى وجه أخي، فقلت له: عرفت منك أنّ القلوب تنبضع دمعاً موسيقياً، والعيون تنبضع دمعاً مائياً.

قال: بل دمعاً مطرياً، أما القلوب فهي منذ أن فارق آدم الجنة فهي تدمع نبضاً حزيناً.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ثم اقترب إلى بهجته الفلسفية الغامضة وقال: حين يتغير فهمنا لإدراك ما فينا الأشياء تتناوب في أحلامها وخصوصيتها وغرامها.

قلت: البشر وحدهم من يعيشون الغرام؛ لأنه يحتاج إلى ألفة واشتياق وحلم، وتلك الهواجس لا يخلقها سوى العقل حين يعرف أنّ الغرام متعة الروح قبل أن يكون متعة الجسد، والكائنات الحية الأخرى تعيشه، ولكن لا تملك عقلاً لتجعله مثل غرام قيس وليلى.

قال: لقد فسرت ما أردت شرحه، أشعر أنك تتعلم مني جيداً.

قلت: ومن نواح أمي التي سأستعيد نطفة أخرى في رحمها بعد مئات السنين وأنت معي.

قال: وفي أي رحم أكون؟

قلت: من رحم خيالي حيث سنكون معاً.

قال: قبلت الذهاب معك، ما دمت سترمم جسدي، إن كانوا بمقصلتهم سيقطعونه أشلاء، ولكن حتى أصحح لك الإحساس بالغرام عند بقية الكائنات من غير البشر، فلو انتبهت إلى عصفورين فوق الشجرة لوجدتهما يبدآن الغرام قبل البحث عن حبة القمح.

قلت: يتبدل عند الأمهات شكل الغرام في فقد أولادهن في الحروب، فتصبح حبة القمح حبة دمع.

قال: وتلك هي فجيعة كلّ الأمم والعصور، وأمك حتى تستطيع أن تضع دلالة على قبر أخيك في مقابر النجوم عليها أن تؤمن أنّ القلب يدمع قبل العين أحياناً، وكان قدما العشق بدل الدمع، فيقال: إن القلب يعشق قبل العين أحياناً؛ لكن الحروب تأخذ بالمأثور لتقلب إحساسه رأساً على عقب.

بين نواح أمي ورؤيا الحلاج الصوفي الذي اكتشفت أن يمتلك طيبة صامتة تخرج في مناسبة غامضة لتبرر ما تشعره إزاء ما يحدث في هذا العالم ويتعرض إليه هو، فأشعر أن قناعته الغامضة هذه ليست سوى سر من أسرار الصوفية، وأنه حين كتبَ نصاً يهديه الى إحساسه بألفة الروح والبوح مع الكاهن المندائي على الرغم من تضايق الكاهن من وجوده في النهاية إلاّ أنه أراد أن يثبت لي أن هذه الديانة من فواصل المودة التي تسكن قلبه وقلب رفاق طريقته وعشقه ورؤيته، وأن الغنوص ليس سوى رداء أزلي للتصوف.

اكتشفت أيضاً أن القدرية الغامضة أظهرت لي بعضاً من نورها وخفاياها، فحين يتكلم تكاد

تعرف الحلاج جيداً؛ ولكنه متى صمت تنغلق معه صناديق المعرفة كلها، وقد يضرب على رأسه بعصى غليظة ولا يتكلم أو يحدث ردة فعل.

كان الصمت الهوة العميقة التي يلجأ إليها، وحين سألته عنها قال: هي عميقة ولكن ليست أعمق من البئر التي رمي فيها يوسف الصديق، ولهذا تلك القدرية لم أعد أعرف عنها سوى أنها كشفٌ روحيٌ لا يمتلكه آخر غيره من الصوفيين الذين كانوا يملؤون نهارات بغداد بتراويح النهار، والبحث عن وجوه حسناوات أغلبهن كُنَّ خيالاً ولم يكنَّ واقعاً.

كانوا يتخيلون حتى يشعروا بأن عباداتهم مكتملة، وأنهم يستطيعون أن يقولوا شعراً جديداً بموسيقا تختلف تماماً عن موسيقا عمر بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وأبي نُواس والفرزدق وغيرهم.

وكان عليّ أن أكتشف أن هناك فروقات في ممارساتهم تلك الطرائق التي التصق شكلها بأحدهم، فكان هناك من يختزل الكون بعبارة كما عند النفري: «كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة»، أو ما قالته رابعة العدوية لسفيان النوري: «إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكلُ، وأنت تعلم فاعمل».

فأعرف من معلمي أنَّ طريقة صاحب الدكة قد تختلف عن طريقة درويش الطريقة؛ لأنه قال لي مرّة، وقد أحس أني أستمع إلى تهاليل الدراويش ومدائحهم التي أقاموها في صحن مقام علي الشرقي، حيث كان واحداً من محطات سفرتنا:

«لا تنصت للصوت المتوسل بالتكبير ليخرج معه الدم، فيغرق الإيمان ورغبة الوصول بين الدفوف والدم. اغرفْ في هذا البوح الخارج من أعماقي، فالسباحة فيه نجاة».

لهذا كنتُ أشعر أنَّ معلمي ذاهب إلى المعرفة العميقة؛ ولكنها معرفة تنقل للآخر صورةً للشرك والتفكير الباطني بجعل الغيب وسيلةً للبحث عن ملامح ليس من حقنا أن نراها.

وبسبب هذا عاش الدراويش تقريباً بمأمن من غضب الخلفاء والسلاطين والولاة، بينما كان أغلب من اقترب من رؤية أبي منصور الحلاج مطارداً، إنْ كان يعيش في الشرق العربي أو الشرق الفارسي. وهو يعرف أنَّ الدراويش لهم جهة صوب الله، لكنها تتخذ من مديح النبي طريقاً لتتبارك بالنور، وليس لجلبه أو حبسه في الجُبة، وهم بذلك يتطرفون بطلب المودة في هذه الصورة لتذهب أجسادهم إلى المقاصل أو الاغتيال بالطعام المسموم، وقد يموت بعضهم عطشاناً في صحراء التيه.

الفصل الثاني عشر

نبيّ توراتي تحبهُ الديانات كلها

وهكذا نستمرُ في ألفة الطريق، وقد اقتربنا مما كنت أظنه آخر المحطات، حيث دم أخي المستقبلي لم يزل بارداً على طين ضفاف دجلة، حيث مزقت أحشاءه شظيةُ مدفع بعيد المدى.

لكنني - وقد أخذ مني عهداً ألا أفارقه، وأن أعيده معي إلى بغداد- رضيت بأن نستمر في المسير إلى ظلّ المكان الذي استظلّ به والدنا آدم وأمنا حواء. شجرة السدر العملاقة القريبة من ملتقى النهرين، وشرطي أن نبقى في قرية العزير ثلاثة أيام، وحين سألني عن السبب وكل محطة لم نبث فيها سوى ليلة واحدة قلت: إنها الأيام التي تستغرق مأتم الشهداء والموتى.

قال بمزاح لم آلفه منه: وسنأكل الثريد في نهاية كل يوم على روح أخيك.

قلت: أين أمي لتطبخه؟

قال: إن لم يكن متوفراً فدموعك طبيخنا.

وهكذا نحط الرحال في مساء كانت نسائم الأهوار فيه تأتي إلينا برياح رطبة وثقيلة بسبب مواسم الشرجي التي لا تحمل سوى رائحة القصب والسمك النافق، وغناء رجال يدفعون بشخاتيرهم بعيداً، بينما سفن آتية من سمراء تحمل بطيخاً إلى البصرة، أصر أصحابها على إنزال بعض من بضاعتهم ووزعوها نذوراً على زوار الضريح ثواباً لموتاهم، وكانت حصتنا بطيختنا هي عشاؤنا.

عاد إلى مزاحه وهو يرمي شيف البطيخ إلى بطنه: وأين الطبيخ؟

قلت: أشمُ رائحته تأتي من القرى القريبة.

وحين مرّ واحد من أهل المعدان يقود قطيعاً من الجواميس ناديته: هل في عشائكم طبيخ.

ردّ مبتسماً: نعم، ومعه اللبن الخاثر. انتظراني يا زائري النبي.

لا أعرف لماذا تخيلت أن من يقود قطيع الجواميس هو أخي، وعليه أن يشعر بسعادة كبيرة ليلبي طلبنا؛ لكن أخي المستقبلي كان متحضراً في وظيفته؛ كاتب أحوال مدنية وقارئاً للكتب الوجودية، ومعجباً بسارتر الذي عرضت على الحلاج شيئاً من فلسفته، فأخبرني أن تلك هرطقة روحية لا يُوصَل بها إلى المنى ما دامت تنكر وجوده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أتى لنا الرجل الطيب بصحنٍ كبيرٍ من الرزّ الذي يسمونه في العامية الطبيخ.

ولمّا شمّ الحلاج رائحته انتعش وتذكرَ طعم الطبيخ الذي قدّمه لنا الكاهن المندائي في قرية قلعة صالح، وراح يعيد إنشاداً ما كتبه عن الروح المندائية، وما يشعره هو أنها غارقة بالتصوف، وصنع نبوءات الزمن، والذهاب إلى الأبراج السماوية البعيدة والسباحة المطلقة في النون، وأنا بدوري حفظتها أيضاً عن ظهر قلب.

صرنا نأكل الطبيخ بعد أن نصبَّ عليه اللبن الرائب، وننشد معاً ذلك النشيد المندائي الذي تلاه الحلاج بفمه، وحفظته أنا عن ظهر قلب، وغير بعيد جلس الرّجل المعيدي وهو يشعر بسعادة؛ لأنه يشاهد الحلاج بجبته وعصاه محنياً ظهرَه يعيش سعادة. تناول غذاءه وقد حسبه «روزخونيا» جاء من كربلاء ليطوف بين القرى فيقرأ مأتم عزاء عاشوراء الذي اقتربت أيامه.

بدأنا ليلنا في المكان، ولم يتسنَّ لي التحرك صوب المكان الذي التقيتُ فيه بأخي المستقبلي الذي افترض أنه المكان ذاته الذي سقط فيه شهيداً.

فبقينا نفتش بين النجوم عن نقطة التقاء القبة بحافة الضوء وهو مهمته؛ لأنه في أمكنة مثل تلك يحاول أن يجعل الفيزياء إشارات روحية في التقاء الأشياء.

قال: لم أبدأ بالدوران حول المكان؛ لأن بصري ضعف من لهفة الانتظار، وأنا الذي لي جهة واحدة، هي هو، وصاحب المكان يحتاج إلى شمس ليريني تلك الجهة، وعندما يمتنع سأشكوه إلى ضوء تلك النجمة التي تلتقي عند أحلامه كلَّ يوم، وتقدّم خدمتها لزائريه. فالضوء، يا ولدي، حين تحتاج إليه الرّوح يصبح قمحاً وطبيخاً وحبات مشمش وعناقيد عنب.

قلت: خذ النجمة إليك، فأنت تشمُّ ضوء النجمة، وأنا أشم الآن ثياب أخي وهي ملطخة بالدماء، أسمع صراخه من ألم الشظية قبل أن يموت.

قال: سأدمع من أجله، وحين نطوف حول قبر النبي الولي في الصباح اسأله: كيف مات أخوك؟ فهذا الكاهن والنبي والولي شهود عِيان للمكان.

قلت: في صخب الزائرين صباحاً لا تستطيع أن تسأل، ومن الصعب أن يمنحك الجواب، فهناك غيري من يطلب منه حاجة وسؤال.

قال: سيقدمك عليهم لأنك آتٍ من جهة بابل.

قلت: لا تُعده إلى أحزان السبي، فهو هنا مشاع للجميع.

الممسوحة ضوئيا ب CamScanner

قال: شيوع الأنبياء لا يضيع في نقطة المهد الذي ولدوا فيه، هذا نبي توراتي.

لم أفهم العبارة، وقلت: أنا أقصد المحبة المشاعة وليست المجانية.

قال: انتشار قلوبهم يحتاج إلى مدركين، ومن يدركهم يواليهم، ومن يواليهم عليه أن يتعلم منهم، ولا يجعل النذور السبيل الوحيد إليهم. أنا فهمت الأنبياء على أنهم من القادرين على الأخذ بيدي صوب الجهة التي إليها أكون.

قلت: لا، هو نبيٌ للجميع، وأظنُ أنه تخلى عن تلك الرؤية حين رأى المذاهب والديانات كلها تجيء إلى بركته.

قال: لقد ركبنا الحمار وأتيناه، وهو ركب حماره وجاء إلينا لنلتقي به، وكثير من الرؤية لديّ عنده، وكثير من الإجابة عنده لدي.

قلت: أما أنا فليس لي سوى أخي، وأخبرك أني تعِب، وأعرف أن البطيخ باردٌ يسرع في النعاس.

قال: أنا أبقى جالساً أتلمس في النجمة فهماً للإتيان به والعيش في المنادمة والافتراض. لقد عاشوا ليلهمونا، ومتى اكتمل الإلهام فينا أصبحنا منفصلين عنهم، ومن حقّنا أن ننالَ ما ينالونه، فهناك منهم من رأى الله.

قلت: لا، بل من كلم الله.

- وهناك من هو ابن الله.

قلت: وهو لم يزل صليباً على الأرض.

قال: وهناك من هو حبيب الله.

قلت: سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وصل إلى السدرة وعاد ليروي سفره إلى مدن الله.

قال: نم إذاً، فالصباح معك مشوار، ومعي أنا مشوار أيضاً، ولا تنسَ غداً أول أيام مأتم موت أخيك.

قلت، وأنا أغمض جفني عند آخر لمعان لجهة النجمة: بل استشهاد أخي.

وقبل أن يجيء الكرى جمعت من كلام الشيخ شيئاً من افتراض تفاصيل وجه النبي الجالس عند ضفاف دجلة، وتذكرت أنّ أخي أودع عنده ألف أمنية ودعاء ليعود سالماً من تلك الحرب

التي تقول عنها قراطيس المستقبل: إنها ستستمر ثمانية سنوات، وفي السنة الرابعة قتل فيها أخي، وهذا يعني أنه عاد إلى أمي سالماً في ثمانية وأربعين إجازة وفي كلّ مرّة توصيه: «أينما يكن هناك مرقد لولي أو ابن إمام، أو نبي قرب خنادق حربك اذهب إليه واطلب منه الشفاعة والسلامة والعودة إلي».

أشعر أنّ النبي العزير أبقى أخي سالماً لأشهر في المكان هذا، ثم أثناء غفلة في نعاسه ترك شظية المدفع تخترق صدر أخي، وربما أخي في آخر مرورٍ له أمام الضريح، يوم حملوا جثته إلى وحدة الميدان الطبية، أرسل للقبة عتباً، والنبي إزاء هذا العتب دمعت عيناه، وغداً سيكون أول من سيحضر المأتم ليقدم اعتذاره؛ لأنه لم يمنح والدتي المستقبلية بهجة أن يعود إليها ولدها في إجازات الحرب، وينام في أحضانها، وهي تعيد إلى شغف حنينه إليها، تلك الأنشودة الأسطورية التي تقول: «دللوه يا الولد يبني دللوه... عدوك بعيد وساكن الجول».

نمتُ وفي الطيف تأتي رؤى استعادة ملامح صاحب الضريح، وأنا أعرف أن أول أيام عزائي بأخي ستكون فاتحة القراءة عن المكان وصاحبه الذي أستعيد من تواريخه وشخصيته ما ذكره كتابٌ مخطوط بعربية فصيحة لمؤرخ عباسي طلب منه الخليفة المأمون تعريفاً بصاحب الضريح الذي يتبرك به كلّ مسافري الطريق بين بغداد والبصرة، فكتب رقعة يعرف فيها النبي:

كان عزير رجلاً صالحاً حافظاً للتوراة، فبينما كان ماشياً على حماره في حين من الأثناء، مرّ عزير على قرية خاوية ليس فيها بشر، فوقف متعجباً، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّـهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فأماته الله مئة عام؛ قبض الله روحه وهو نائم، ثم بعثه، فاستيقظ عزير من نومه، فأرسل الله إليه ملكاً في صورة بشر: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ فأجاب عزير: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ نمت يوماً أو جزءاً من اليوم. فردّ الملك: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ويعقب الملك مشيراً إلى إعجاز الله (عزّ وجل) ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أمره بأن ينظر إلى طعامه الذي ظلّ بجانبه مئة سنة، فرآه سليماً كما تركه، لم ينتن ولم يتغير طعمه أو ريحه، ثم أشار له إلى حماره، فرآه قد مات وتحول إلى جلد وعظم، ثم بين له الملك السرّ في ذلك ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾. ويختتم كلامه بأمر عجيب ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾. نظر عزير إلى الحمار فرأى عظامه تتحرّك، فتتجمع، فتتشكل بشكل الحمار، ثم بدأ اللحم يكسوها، ثم الجلد ثم الشعر، فاكتمل الحمار أمام عينيه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم خرج إلى القرية، فرآها قد عمرت وامتلأت بالناس، فسألهم: هل تعرفون عزيراً؟ قالوا: نعم نعرفه، وقد مات منذ مئة سنة، فقال لهم: أنا عزير، فأنكروا عليه ذلك، ثم جاءوا بعجوز معمّرة، وسألوها عن أوصافه، فوصفته لهم، فتبينوا أنه عزير، فأخذ يعلمهم التوراة ويجددها لهم، فبدأ

الناس يقبلون عليه وعلى هذا الدين من جديد، وأحبوه حباً شديداً، وقدسوه للإعجاز الذي ظهر فيه، حتى وصل تقديسهم له أن قالوا عنه أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، وقد ذكر الله قصته هذه في سورة البقرة الآية /259/ حيث قال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال لي: أنت تسرد قصة ولا تسرد تاريخاً، فالمعرفة سرّها الوقائع.

قلت: اخترت ما أظنه قريباً إلى عاطفتك بمعرفة من تودّ الجلوس إليه.

قال: ولكن معرفتي به غير ما في قراطيسك.

قلت: أنت تراه بعين، وغيرك يراه بعين ويدين.

قال: وهذا ما نسميه الأمانة في النقل وتحديد ما يصدقه العقل.

قلت: وما قصتك عنه؟

قال: ما عرفته من وقائع سبي النبي البابلي لأهل أورشليم، وقد ثاروا عليه مرتين، وجيء بهم إلى بابل، وهم من يدّعون أنهم جعلوا فيها الرؤى عامرة، والفلسفة مزدهرة، وانتقاماً من الملك البابلي يطلبونها لهم ملكاً ويستمرّ هذا إلى وقائع عصور آتية هاجسها توراتي وظاهرها أرض مسلوبة، ولن تكون الغلبة لليهود، ولكنها ستكون سجالاً.

وهو في إصحاحهم، كما ذكروه، من أنصف في مكانته وعزته في ديانات الله أنه: هو عزير (عزرا) بن شريه بن خلقيه بن عزريه بن شالوم بن صدوق بن أخطب بن امريه بن عزريه بن يوحنان بن عزريه بن أخيمعص بن صدوق بن اخطب بن امريه بن ماريوت بن زرحيه بن عازي بن بقي بن أبيشوع بن فنحاس بن العزار بن نبي الله هارون بن عمران بن قاهات بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وقد مرّت الأيام على بني إسرائيل في فلسطين، وانحرفوا كثيراً عن منهج الله (عزّ وجل)، فبمعرفة الله الغيبية أراد الله أنْ يجددّ دينهم بعد أن فقدوا التوراة ونسوا كثيراً من آياتها.

مرّ عزيرٌ على هذه القرية -وهي بيت المقدس على المشهور، بعد أن خربها بختنصر وقتل أهلها- وهي خاوية ليس فيها أحد، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(أنى يحيي هذه الله بعد موتها)، وذلك لما رأى من دثورها، وشدة خرابها، وبعدها عن العودِ إلى ما كانت عليه.

قلت: نحتاج إلى حكم يرضى بتعريفنا لمن ننام عنده هذه الليلة، أنت بروايتك وأنا بروايتي.

قال: هذا جدل موثق لما قلته أنت، وقلته أنا، والذي يهمني عاطفته، فإنْ كانت تسبح في الفضاء لتنال منه تكليفاً فهو نبي، وإن كان كاهناً بسبب زهرته وعرافته جعلوه نبياً، فهذا ربما كان صوفياً ثم تحول ورعاً بفضل الكتب.

قلت: العزير مذكور في القرآن.

قال: وأنا مع القرآن ساجد وقارئ وعابد؛ لكنني اتحدث بالمحسوس لأطيب النفوس حين أراها الآن ابتدأت الشخير، وهم يعرفون أن للأنبياء هدوءهم، فلقد مات هنا من تعب الطريق بين الأحواز وبابل وهؤلاء يشخرون.

أحسست بانزعاج وهو يبدل طريق النقاش كأنه يدخلني في سفسطة مقصودة! فقلت: نحن لصاحب المقام زائرون فلا نشغله بما لا يعنيه، فقد اقتنع هو أنه صار مقصد بركة للجميع.

قال: ولهذا رضيت بثلاثة أيام عنده.

وهكذا أقمنا الليل بحديث ولذة البطيخ والطبيخ، وغفوت وتركته ساهراً مع القبة والنجوم، وغفوت بعد أن أطعمت الحمارين من قشور البطيخ التي تركها الزائرون، ثم أخذتهما إلى الضفاف القريبة ليشربا الماء، وقلت لهما: إن راحتكما هنا ثلاثة أيام وبعدها سيكون المسرى صوب شجرة السدر، حيث مقام صغير لخطوة آدم، وهو يبدأ فيها سيره على الأرض لأول مرّة.

لكني شعرتُ أنّ الحمارين سعيدان، وما إن نظرت إلى ما في عينيهما من إحساس، عرفت أن سعادتهما تكمن في أنهما هذه الليلة سيشتركان في مرح الشهر مع حمار ثالث، هو حمار النبي العزير، وحين رجعت لأخبره كان هو قد أغلق كلّ أبواب السماع، وراحت حواسه تبحثُ عن مكانِ النبي حيث يجلسُ فوق القبة، وحيث الحلاج يريدُ منادمته.

غفوتُ، وكنتُ أضعُ وجه أخي في أحداقي، حاولتُ جاهداً، قبل الغفوة، أن أجد النجمة التي افترضتها أختي مقبرة لجثة أخي جلبها إلى كرى الليل، فتصاحب أخي وتربه مكانه على ترابها؛ لكن انعكاس القبة المطعمة بحجرِ الفيروز كانت قد صنعت في المدى المفتوح خيوطَ ضوء تمتدُّ إلى أفلاك وأبراج وكواكب وأقمار السماء لترتبط معها في حزم فضية تلمع كمرايا هائلة الحجم، فلا أعرف أي النجوم هي مقبرة أخي.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وأعرف أنّ هذا الحدث الفلكي قد حدث الليلة بسبب هذا الذي يغلق عينيه ويؤرخ لصمته لحظة يتمناها كي تجعله أكثر قرباً من مناه، ولا أدري إنْ كان قد اقترب أم لم يقترب، فقد كنت أشعر بالنعاس، فرجوتُ أخي أن يتمدّد قربي لننام معاً، وصباحاً سيفطر معنا، وسيحدثنا عن موت الحرب، وما هو هذا الهيكل الحديدي الذي يمتلك فوهة طويلة يطلق حديداً ليقتل الناس.

وكنت أعرف أنّ هذا الحديث قد لا يهم الحلاج، فأخبرته أنني في الصباح سأجالس أخي عند ضفاف دجلة، أجمع منه حكايات موته وتصاويره، وعليه أن يبقى في الصباح ليستقبل المعزين نيابة عني.

قال: تلك مهمة شاقة أن تتلقى التعزية عن ميت لا علاقة لك به.

قلت: لا عليك، لا تفعل شيئاً سوى أن تصافح الناس وأنت صامتٌ، المعدان أيضاً، وكما أخبرني من أتى لنا بالطبيخ، لا يقيمون المآتم إلاّ بمساحة دمعتهم وصمتهم وحزنهم، والسلف الذي هو مساحة انتقالهم، وقد تكون مسافته عشرين خطوة، فلا يسمح لهم أن يقيموا قداساً وطقساً وموتاً.

وأعرف منه أن لديهم ظاهرة من الهاجس الكئيب انتبه إليه الحلاج كثيراً ويسمى حزن المعدان، وقد عرفه أخي وتحدّث إليّ عنه ذات مرّة بقصة مؤثرة تتحدّث عن حزن المعدان وتفرعات الدمعة والصمت فيه، وهم يتساءلون في سريرتهم: لماذا حزنهم مميزٌ؟! وربما الكثير منهم لا يدرك تماماً لماذا قيل هذا المثل حين تهطل الدموع ويتعالى نواح الأمهات في مواسم موت المعدان؟ عندما يموتُ الصغار غرقاً في مياه الأهوار جزاء انقلاب زورق، أو بسبب أمراض البلهارسيا، أو عندما تلتهبُ أعضاؤهم الذكرية وقت الختان الذي يتم أغلبه من قبل رجل جوال يدّعي أنه خبير في التضميد، أو عندما تنفق جاموسة وهي لم تزل تدر حليبها بكرم وفير، أو حين يموتُ ربُّ الأسرة بعد أن يخنقه السعال والسل وهو لا يعرفُ سبب علته.

وللمعدان حزنٌ سنوي يأتي مع أيام عاشوراء ينحبون فيه بصمتٍ وهم يشكون نأي المكان عن قباب كربلاء، فيصبح حزنهم شيئاً مؤثراً تمنيتُ أن أستعير منه بعض هواجسه حين أجالس أخي على ضفة النهر، ومن بين حكاياته عن معدان الأهوار الذين كانوا يمزون بقطعان جواميسهم قرب مقرّ سريته، أستعير حافزاً لجعل الدموع قصائد ونواحاً موسيقياً أجمعه بآنية اللبن الرائب، وأذهب به إلى أمي لتدرك أنّ لنواحها موسيقا جديدة من البكاء.

أخذني النوم إلى مدارجه، ومن تعب الطريق صرت أشخر.

أخبرني في الصباح أنه ابتعد عني لأن شخيري لا يتلاءم مع طقس لحظته، فاعتذرت منه،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

فقال له: نحن شخيرنا لا يطاق أيضاً، لكنه نادر؛ لأننا نسهر كلّ الليل في يقظة المنادمة، فلا يسمع عن شيء مزعج اسمه شخير المتصوفة.

أضحك حين أفتح نافذة المستقبل وأنا أرى واحداً من أصحاب الصفحات على الفيس بوك يطلبُ صداقة الحلاج على الفيس وعنوان صفحته هو (شخير المتصوفة)، وهو ما أعجب الحلاج كثيراً وصار يراسله ويناقشه، وأدرك منه أنّ هذا الشخير أصبح في زمنِ العولمة عملةً نادرة، ومن يمتلك أسطوانة منه لشخير صوفي لنائم من أهل سمرقند أو دمشق أو بغداد ستباع هذه الأسطوانة بملايين الدولارات في مزادات كريستي، وربما ستوضع بجهاز الحاكي قرب لوحة الموناليزا في متحف اللوفر.

وكان صاحب الصفحة بزّر وقتئذٍ بأنّ شخير الصوفيين هو شخير الحقيقة بعد أن أصبح كلّ شيءٍ مصطنعاً بسبب زعيق الطائرات الحربية، وهو شخير الحديد، وشخير السيارات الذي يون أبواقها، وشخير البشر بسبب ضياع بوصلة الحلم، وأمريكا تغزو بلداً كلّ يوم.

دائماً كنتُ حين أفتح صفحة الحلاج أراه يهربُ من الأرملة التي تعلقت به، وأرادت منه وصلاً من خلال كاميرة «الماسنجر»، فيهرب منها للحديث مع صاحب صفحة شخير المتصوفة الذي لم يتسنّ لي سماعه من أنف الحلاج، وحتماً سيكون صفيراً متميزاً.

أتذكرُ مرّة أن أخي الشهيد المستقبلي، واسمه جعفر، كان قد تحدّث لنا في واحدة من إجازاته عن شخير الجنود، ومن غرابة ما تحدّث به أنّ شخير الجنود، خصوصاً في الحرب، يختلفُ عن صنف وآخر، فجنود المشاة يشخرون بطريقة تختلفُ عن شخير جنود المدفعية، وشخير جنود الدروع يختلفُ عن شخير الاثنين، وهكذا في كلّ الأصناف، ولكن أعلى شخير هو شخير جنود السرايا الكيميائية.

وحين سألته عن السبب؟

أخبرني: لأنهم من خلال عملهم يستنشقون قليلاً من الغازات السامة أو الحادة، فتتسرب تلك إلى جدار الرّئة التي تحاولُ طردها في الليل من أنفاسنا فيكون هذا الصوت صراعاً بين رئاتنا وأبخرة الغاز المترسب فيها.

لاحقاً يخبر صاحب صفحة شخير المتصوفة الحلاج أن شخير الصوفية إن كان مسموعاً فهو مدوٍ، ولكن هناك شخير يثير الحزن يطلقه مرضى السرطان في المستشفيات؛ لأنهم استنشقوا الهواء المشبع باليورانيوم الذي بقي وتأكسد على الآليات العراقية المدمرة في حرب الخليج الأولى جراء قذائف الدبابات الأمريكية.

عقب الحلاج على ذلك قائلاً: ليبعدنا الله عن شخير اليورانيوم، وليقربنا من شخير الوجوه الجميلة.

وقتئذ عرفتُ أنَّ أخي يتحدث بصدق وعن تجربة، وربما لو لم تصبه الشظية لكان قد توفي مبكراً بسرطان الرئة نتيجة تلك الغازات التي يتعامل معها جنود السرايا الكيميائية، وبسببها يطلقون شخيراً قوياً أثناء نومهم.

مع العوم والتخيلات مع تلك المفردة (الشخير) شعرتُ بانزعاج الحلاج منها، فذهبت إلى انتظار الصباح لأستكشف في المكان أين توسد أخي، وقد أخبرته أنني قد لا أوقظه مبكراً؛ لأنني ذاهب إلى حيث أخي وإغماض عينيه، فنصحني قائلاً: إنْ أردت معرفة مكانه عليك أن تشمَّ الطين، فرائحته تبقى، وهذا من دلالات البحث عن أرواح في الأمكنة.

قلت: وأنا أشعر بذلك.

قال: ليكن صباحك وجه أخيك، وليكن الطين دليلك، وسترى الطين حزيناً، كما في كلِّ عصوره، إنه القبر والنعش والجباه وحناء الشفتين.

وحين أشرقت شمس الصباح فتحتُ عيني، كان المنظر مفتوحاً بأذرع تتسع إلى المدى الأخضر حيث توجد سبع نخلات أمامي شامخات على ضفاف النهر، والقرية لم تزل غافية، وصاحب الضريح أيضاً، وفي المدى البعيد ينهض القصب بحماسة لذة شعاع الضوء ليحفز الجواميس على النهوض كي تمنحه إفطاراً وقيلولة، وفي المساء تخضع أثداؤها لأنامل نساء القرى، ومن ثم يحمله الرجال ليطعموا به زوار هذا الضريح، ومن يكون ميسور الحال يدفع درهماً لكلِّ آنية حليب، أو صحن قيمر، أو لبن خاثر، ومن لا يملك المعدان يمنحوه بضاعتهم مجاناً وعن طيب خاطر، لهذا شربت حليباً تكرَّم به أحد المعدان علينا في الليل، وتناولت قطعة من خبز الرز (الطابك) وتركت الشيخ نائماً، وذهبت أسير مع الروائح التي يبعثها الطين، فأشعر أنها أرواح كلِّ الجنود الذين سقطوا صرعى في معارك شرق دجلة، وبينها أولئك الأطفال الذي يغرقون في العوم أثناء الظهر في الصيف الحار، وكما قال لي، ذات مرَّة، ونحن نتطلع إلى دجلة في سيرنا بمحاذاته على طول الطريق بين بغداد وقرية العزير: إن متَّ غرقاً، فأنت شهيد القاع، وإن متَّ بشظية فأنت شهيد المتاع.

Telegram:@mbooks90

وحين سألته: ما المتاع؟ قال: حظه المؤمن من وجع الحديد.

وحين سألته: المتاع خبزٌ والحديد معدن، فما الرابط بينهما؟

أجابني: الحروب المجنونة.

لم يقنعني رده، ولكني قلت لنفسي: لأتركه هو صاحب شطحة.

فأجابني وهو مغتاظ: المتاع أن تحصل على ما يكون خاتمة لقناعتك بالحياة.

قلت: المتاع خبز يا معلمي.

قال: وشعاع يذهب بك إلى السماء، والشهداء بعض من أرغفته، وخصوصاً شهداء شظايا الحديد والسيف.

قلت: وموتى القاع.

قال: هو قدرهم أنهم في العوم ضعفاء.

ذهبت لأمشي بمحاذاة الضفة، وحين شاهدني رعاة قطعان الجواميس، أشاروا عليّ بالتحية، وحين ابتعدت عن الضريح ينصحني أحدهم بأن أحذر، فالأرض موحلة، وربما هناك بقايا ألغام بحقول زرعتها كتيبة الهندسة التي كانت تجاور الكتيبة الكيميائية، وأعرف من أحد المعدان الذين حذروني من خطورة عبور النهر إلى غابات القصب بأن عشرات الجواميس قطعت سيقانها بسبب تلك الألغام، ولهذا شاع بسبب ذلك ما يطلق عليه حزنك حزن معدان، فهذا الحزن أغلبه يأتي بثلاثة هواجس: أبناؤنا حين يغرقون، وأهلنا حين تقتلهم البلهارسيا، وجواميسنا حين تقطع سيقانها بقايا الألغام المنتشرة على الطين، وتعجبت كيف تنفجر وهي مبللة! قال: حظنا العاثر جعلها صالحة للانفجار.

قلت: سأكونُ حذراً وسأفتش عن مكان مصرع أخي.

أعاد المعيدي نصيحة الحلاج وقال: حتى تجده حاول أن تشم الطين؛ لأن الثياب، خصوصاً بدلات الجنود، تبقى فيه عطرها إلى الأبد.

تعجبتُ من رؤية المعيدي، وحسبته الحلاج، وقد تحول إلى راعي جواميس ليسير بمحاذاة الضفة الأخرى ويحذرني من حقول الألغام، وحين سألته: ما اسمك؟

قال: مزلاج.

ولأني عرفت أسماء المعدان، معظمها تحملُ اسم سيد علوي، أو اسم إمام، أو نبي، وأنهم يُلحقون تلك الأسماء في أغلبها بكلمة عبد، فيكون الاسم عبد الزهرة أو عبد الله، أو أبا عبد الكاظم. سألته: من أين أتى هذا الاسم الغريب؟! فالمزلاج -كما قرأت عنه في كتب الوراق

البغدادي الذي كنت أشتري منه الورق- يعني قِطعةٌ مِن الحَديد، أو الخَشب تُشغفلُ لإغلاق الباب، كالمغلاق، إلا أنه يفتح باليد، والمغلاق لا يفتح إلا بالمفتاح. أجابني: من الظلال التي تمشي معك في الطرقات وأنت تبحث عن شيء مفقود.

لحظتها عرفت أن الذي يحدثني من الجانب الآخر هو الحلاج الذي استيقظ ولم يجدني، فاقتفى أثري ليساعدني في العثور على عطر ملابس أخي في الطين، وحين رفعت رأسي لأتبين جيداً إنْ كان مزلاج هو الحلاج، وجدته قد اختفى هو وجواميسه.

قلت: هو يراقبني ويحرسني، وربما يكون دليلي لمعرفة المكان، لكني أخافُ عليه من الألغام، فتمنيتُ أن يعود، وربما أعطى نصائحه إليّ وعاد ليستشرق ما في روحه من شوق مع صاحب القبة.

أكملت طريقي في البحث عن مكان أخي، وقد تذكرت المكان الذي زرته فيه حين رأيت ساتراً من التراب يحيط ملاجئ وخنادق وغرفاً من الطين، فصحتُ: هنا زرت أخي.

فاجأني صدى صوته الحنون: نعم هنا يا ابن أمي، فأدركتُ أنّ التراب هو من أتى بعطر أخي وليس الطين، وشعرتُ بالسعادة؛ لأنّ موت التراب هو موت العودة إلى الصمت، بينما موت الطين يبقي لديك جدلية الخلق الآخر؛ لأن آدم خُلق من صلصال، بينما يحتاج شهداء القبور إلى دفن وراحة وصمت، وما يتجمع من أشلاء مزقتها الشظايا ستتكفل الملائكة بتجميعها في الحياة الأخرى.

أتذكر أنّ الحلاج سعدَ كثيراً وهو يسمع تفاسيري. قال: المتصوفة المصلوبون حتى تبحث عن عطرهم في الأمكنة عليك أن تشمّ الهواء؛ لأنهم يستشهدون وهم معلقون في الهواء.

وأنا أقترب من مكان سقوط أخي صريعاً رحتُ أعيش جدلية الأمكنة الثلاثة: الطين والتراب والهواء، فأسمعه يهمس لي بأن المشترك بين أضلاع هذا المثلث ليس فيثاغورس؛ بل هو الماء الذي خلق منه كلّ شيء، وفسّر لي بأن التراب مع الماء يصيرُ طيناً، ومع الهواء يصبح مطراً.

قلتُ: ومع الدمع يصبحُ نعوشَ شهداء.

أسير بمحاذاة النهر وأتخيلُ أنني في أي لحظة سأشم عطر بدلة أخي، وأنا أشعر أنني أتذكر المكان وأنني في محيطه؛ إذ عليّ أن أعبر جسراً اسمه جسر الواوية، يواجهني باب نظام السرية، والجندي الحارس الذي سيسألني عن مقصدي، فأذكر له اسم أخي، فتهطل منه دمعة فأجيبه: أعرف أنه استشهد، وأنا أبحث عن المكان الذي اخترقت فيه الشظية خاصرته، يؤشر إلى ساتر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صغير، وقال: كان يجلس عليه وهو يكتب في دفتر خواطره.

أذهب إلى ذلك الساتر الصغير، وأتبين أنّ لأخي حدبة تنحني على دفتر للذكريات، وأشعر أن بين الأوراق صورة لأمي، فأقترب لأشمّ الدفتر ورائحة الصورة، فيرفع رأسه ويستقبلني بعين دامعة تهمس بشيء من نعومة الحسّ: نلتقي حيث تفرقنا الشظايا.

قلت: نلتقي حيث تفرقنا الأزمنة، لقد جئت إليك من زمن كان الحلاج فيه صديقاً ومعلماً ورفيق سفر، وهو يعرفك أيضاً.

قال: الحرب التي متُّ فيها لا تعرف الحلاج بقدر ما تعرف المزلاج.

تذكرتُ راعي الجواميس الذي اسمه مزلاج وقلت: كان قبل لحظات يساعدني في العثور على مكانك، ولم يكن من أهل المعدان، بل كان صوفياً.

قال: نعم، المعدان يقفلون أمنياتهم ولا يحتاجون إلى المزلاج؛ يحتاجون فقط إلى الهواء المفتوح، وحين جئنا بحربنا ومعداتنا خنقناهم ومنعنا الحياة عنهم.

صعدتُ إلى أعلى الساتر، وتمنيت لو أن أخي بقي يكتب في دفتر يومياته داخل هذا الزاغور، وليس يجلس بكامل جيده في أعلى الساتر، وقتئذٍ لن تخترق خاصرته الشظية.

قال: كنت أتخيلُ غابات القصب الممتدة حتى الأحواز تمنع الراصد البعيد أن يشاهدني، ومع هذا فأنا من ضحايا القصف العشوائي.

أتذكر ما قاله الحلاج لي مرةً، ونحن في سمر الطريق: العشوائية في الموت تشمل الجميع حتى فراشات الورد عدا المتصوفة، فإنهم يذهبون إلى الموت بهاجس مبيت ضدهم.

قلت وقتئذٍ: ربما بسبب ما يشطحون به، ويذهب إلى أبعد ما حفظوه من تلاوات وقراءات واستئناس مع الحسّ والفكرة.

قال: ما دمت أخذت وعياً جيداً من حانوت الوراق وكتبه سأقول لك لماذا؛ لأننا، أنا والقليل، وليس كلنا، نعتقد أن تكرار المدائح يقربها من ذبول المعنى، ولا ينفعنا في بقاء الشوق متوهجاً سوى الرّغبة بالإتيان، والإتيان هو الإيمان وليس الكفر، وبالمختصر أنا أحبه، إذاً أنا أريده.

الحلاج يريد فأتاه، وسيأتيه الموت، وأخي لا يريد أن يكون ضحية الحرب؛ لكنه كان من ضحاياها، وعندما مسحت الدمعة عن خد أخي كي لا تسقط على دفتر خواطره، وتخرب بوح كلماته، عاد لينادمني بمحطات من طفولتنا، فذكرني كم كنتُ أحبُ درس الجغرافية وأنا في

CamScanner

المدرسة الابتدائية، وأني، متى خلعت أمي ثياب الحزن تنتهي مواسم عاشوراء، فإنني أصنع منها عمامة وألفها على رأسي، وأذهب إلى حمار جارنا صاحب عربة بيع الخبز اليابس، وأصعده وأتخيل أني ابن بطوطة وعليّ السفر.

يضحك أخي ويقول: وكنت تريد أن تجيء بالأزمنة وتذهب بها وكأنك من قرون بعيدة!

أعرف أن أخي لا يعلم أني عشت عصراً غير عصر هذه الحرب التي قتلته، وأن الأقدار اختارت لي رحماً مستقبلياً آخر، له محنة ودموع مع نعوش الحرب، وبسبب هذا أحاول، قبل أن ألج إلى الغد البعيد في القرن العشرين حيث توفي أخي في الحرب، أن أستذكر ما سيأتي وأجلب وجه أخي البعيد في زمن المدافع القادمة، وسيساعدني وجه النبي الساكن في أديم دجلة وأهوارها، وقد أحسست أن ضوءاً مرسوماً كالبوصلة يؤشر لي حيث وجدت أخي جالساً، وقد فرح النبي أن طيف أخيه الصغير يجالسه، وقد تحولت أرواحهما إلى نجمة لمستقبل بعيد؛ نجمة هي ذاتها من تنير خواطر أخي، وهو يسجلها قبل سقوط القذيفة بدقائق، وهي ذاتها من قبلت بأمنية أمي وأصبحت مقبرة إلى رفاته، ولأكتشف من حميمية المكان بأجفان أخي، إنهم هنا كلما طال تأخرت الإجازات، هنا تعمقت الصداقة بينهم وبين طيف النبي الراقد قرب خنادقهم.

وربما الحلاج وأنا الأصدقاء الجدد لهذا المكان، والفرق أنني أضفت هاجسي إلى هواجس الجنود بواسطة أخي، وأتيت لأنادم المكان المستقبلي الذي ستسقط فيه آلاف الأجساد صرعى جراء قوة الهجوم الإيراني على قاطع شرق دجلة، حيث اندفعت ألوية المشاة الإيرانية محمولة على الزوارق السريعة لتشنّ هجوماً ليلياً على قاطع فرقة عبد الله بن رواحة من أجل الوصول إلى الطريق الدولي بين العمارة والبصرة المحاذي لضفة نهر دجلة، ولقطع الإمدادات بين قاطعي الفيلق الرابع الذي مقره ثكنة العمارة، وقاطع الفيلق الثالث مقره البصرة.

لم يكن الحلاج معنياً بوصف يوميات الحرب؛ لكنني عرفتها من أخي، وحين سألته: ما ضرورة أن تكون هنا سرية كيميائية والحرب هنا مدافع وألوية مشاة؟

قال: تحسباً لطوارئ حرب الغازات.

ويعقب الحلاج، وأتخيله ينصت من بعيد إلى مسامرتي مع أخي ويقول: نحن نستنشقُ الهواء ليأتي بعطر وجه مليح وعاطفة من ربٍّ رحيم لا نستنشقه فنختنق.

أجلس، أنصت إلى أخي، وأعرف شيئاً عن تفاصيل أيامه وأخبره أنني ذات زمن كنتُ هنا أحاربُ الزنج.

CamScanner

يضحك أخي ويقول: هذا في الزمن العباسي، فكيف كنت هناك؟!

أصمت ولا أريد أن أفسر لأخي حقيقة ما يجري لعاطفتي وهي تتبادل الأمكنة والهواجس بين الأزمنة، فقط لأكتشف أني أستطيع أن أروض صوفياً عنيداً، وأن أجلبه إلى زمن العولمة، وأستطيع أن أجالس أخي حتى بعد أن مزقت صدره الشظية.

وما تعلمته من الشيخ أنّ الصوفي في داخل عباءته يطلق الزمن مزاليجه ويصبح البوح نشوة أن تكون هنا أو تكون هناك، لهذا أجالسك، يا أخي، الآن وأسمع منك تفاصيل أيام كل دهشتها أنك كنت تصعد فوق تلة التراب هذه وتكتب عن المشاحيف وأرتال الجنود والقصب وخيارات الموت والحياة في أبدان النعوش التي كانت تعبر الجسر لتذهب إلى جهاتها، وكل الذي قرأته في دفترك لم تتحدث عن رؤية تقترب فيها لتكون في واحد من هذه النعوش.

قال: لأن وحدتي دائماً يكون موقعها في المواقع الخلفية. نحن ننتظر حرباً كيميائية، وهذا ما لم يحدث، لكن الحرب عندما تكون فإنّ أمكنتها تتسعُ مع كلّ الجغرافيات، لهذا اختارني الراصد البعيد وأرسل إليّ شظايا المدفع 130 ملم.

وهكذا أترك الشيخ مع ما يسكنه من ودّ ومنادمة مع ما يسكن أجفانه من مويجات الضوء الأزرق القادمة من موزاييك القبة التي جُدِّدت حديثاً من تبرعات تاجر أصفهاني كان يجيءُ هو وعائلته كلّ عام، ويبيتُ معهم لثلاثة أيام، ثم يحرّك ظعن قافلته صوب النجف وبقية المراقد المقدسة لآل البيت، حتى يقال: إنّ له ليلة يبيت فيها في مرقد الأمام أبي حنيفة النعمان، وهو أيضاً ممن أسهم بإعمار منارته، حين وصلّ أسسها فيضانُ دجلة وأتلفَ طابوقها، ومعه طلب القائمون على الضريح تبرعاً من أهل قرى المعدان القريبين من المرقد وقالوا لهم: هذا النبي ضيفكم منذ أيام بابل ويحتاج إلى عونكم.

فهبوا، كلُّ بيت ليتبرع بجاموسة ولتصبح التبرعات قطعياً بيعت للجزارين في قرية قلعة صالح، وأرسلوا المبلغ بيد ثلاثة موفدين ذهبوا إلى كربلاء واشتروا الموزاييك الكربلائي الفيروزي والأزرق من أجل القبة والجدران.

ومن بين العبارات المخطوطة على الموزاييك شاهدة كبيرة وضعت فوق عتبة الباب الخشبي الكبير أول الضريح تقول: هذا النبي تمّ استجارته من قبل أهل هذه الديار بمحبة.

يوم قرأ الحلاج العبارة، كلّم طيف النبي بهمس خافت وقال: وأنا أتيت إليك مستجيراً ليشملني البوح سراً لوجود النور في وجودي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقول له: عندما تتحدث مع أطياف الأنبياء والأولياء اترك الجمل الشائكة، فهو لا يريد التفسير بعقدته الصوفية؛ يريده بوضوحه النوراني، وأي نبي يكون الله عنده السماء المرتفعة دون وتد، وأنت تغالي تجعل الوجود مجسداً بألوهية الصورة والتمني.

قال: هذا ما وعدت به ذاتي حتى لو كلفني حتفي، وأنا أدرك أنّ النبي مثلي يعرف نفسه، ومن يعرفْ نفسه يعرف الله، وسيرَه.

وأشعر أن النبي يعرف بنفسه قريباً من تعريفي ويقول: أعرف الله ومن يعرفْه عليه أن يبشرَ بنوره ليبشرَ للجميع بركة، وفيضوا من إلهام الروح للقرب منه، فخرجت من بابل قاصداً أتباعي لهداية قلبه ونوره ومودته.

لقد ذهبت مع كلمة الله لأرشد أتباعي في بلاد فارس إلى نوره وسروره وحبوره. وصلتُ إليهم وعمدت وباركت، وفي طريق العودة شعرتُ بدنو الأجل، وأحسستُ أن الذين سأموت عندهم من معدان الفطرة والطيبة والهدوء، وسأشعر بأمان رفاتي عندهم.

وذات يوم يبيعون جواميسهم ليجددوا قبتي وهذه الزرقة التي تستقبل عينيك بلونها السماوي هي من بعض كرمهم.

قلت: لا تنسب لنبي كلاماً لم يتلوه ويجاهر به، فهم كلامهم من الله، ولهذا كنت في أول طواف لروحي في عوالم الرؤيا ألهج باسم النبي لأحصل على شيء يغذي ما في روحي قبل أن يغذي ما في بدني، بعضهم تعددت أمكنة ومزاراته، وبعضهم كان معلوماً لكلّ الدنيا كقبر النبي محمد (ص) في المدينة المنورة.

وعلى الرغم من هذا فالقباب بنيت لتخلد روحاً قريبة من الله، ولا يشترط أنها لنبي أو إمام، فالحفيد قد يزار، والابن قد يزار، والبنت قد تزار، وكلُّ من ينوء بعاطفة الشوق يصلح لأن يكون له مزار.

قال: أنا أفترضه يشعرُ ويحسُ ويؤمن بهذا.

قلت: الأنبياء هم من يتولون علينا، وأنت الآن تريد أن تتولى عليه. لو أحس بك الناس هنا وبما تفكر لقتلوك.

مع هذا الضباب في عدم وضوح الرؤية لديه فإنّ مجالسة طيف النبي منحته كبرياءً وتشوقاً لشطحات إيمانية قد يعدّها بعض كهنة الدين تطرفاً.

هربتُ منه حتى لا يمضي في أمانيه وترتفع في حنجرته، فيسمعه من يفهم كلامه هنا، وربما

يقال: بحة الكفر في مكان مقدس.

ابتعدت عنه وقلت: سأظلُّ مع منادمة روح أخي وأفضل لك أن ترتاح وتنام.

وذهبتُ إلى تأمل زرقة الموزاييك الكربلائي، أشعر أنها الزرقة نفسها تستقبلها عيون أخي، واللون ذاته هو آخر ما سكن مرايا أجفان أخي قبل أن يغمضهما إلى الأبد.

كنتُ قد صنعت فيه غرابة؛ لأنني أزوره الآن بثياب ليست كثياب زمنه، حيث جئت إليه أفندياً، والآن صبياً يرتدي عباءة أعراب، فسألني إنْ كنتُ استعرتُ ثيابي من أهل قرى المعدان؟

وحتى لا أجعله يعيشُ الشك والمستحيل أتيتُ إليه من العصر العباسي الثاني.

قلتُ: نعم، فحين انتهت الحرب بدأ الحصار، وبسبب الجوع تكاثر السلب، وأول من يسلبونهم هم الأفندية؛ لأنهم يعتقدون أن الراتب في جيوبهم، أما المعيدي فإنهم لا يسلبونه؛ لأنه حين ينتقل من مكان إلى آخر لا يضع في جيبه سوى رحمة الله.

ضحك أخي وقال: لقد عرفتَ أن تصل إليَّ بالحيلة.

قلتُ: نعم وأتيت لأصحب معي دفتر خواطرك. أقرأ منه بعض الوريقات لأمي وسترتاح وتكف عن النواح.

دمعت عينا أخي، وبارتعاشِ محارب مخذول قال: سأعطيه لك، ولكن بعد أن أكتب آخر ما بين يديّ من نصٍّ هو بعنوان (عباءة أمي).

قلت مستغرباً وأنا كنتُ قد كتبت البارحة نصاً عنوانه (عباءة الحلاج)؛ لأنه معي رفيق طريق.

قال: ولكن الحلاج متوف منذ ألف عام!

وحتى لا أشوش على أخي قلتُ: بل روح الحلاج.

قال: أعطني نصك لأقرأه وأضعه مع ما كتبته عن عباءة أمي.

أبتسمُ وأسأل روحي وأقول: عباءة أمي وعباءة الحلاج لا يتحملان المكوث في ورقة واحدة.

قال: في الحرب المتضادات تستطيعُ المكوث في الأمكنة ذاتها، ومن الصعب جعل المتشابهات في مكان واحد.

قلتُ: تلك رؤية للحلاج الذي يسافر معي.

قال: وأنا اكتشفتها في الحرب، لهذا دع العباءتين في مكانٍ واحد. الحلاج عباءته تنشد وجهاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الغيب نوره، وأمي عباءتها تنوح من أجلي.

حين أخرجتُ النصّ من جيبي ساورني شيء من الخجل، لقد كتبت النصّ حين كنا في باحة سحن مزار العلي الشرقي، ولكني لم أخبره، وقتئذ خفت أن يغضب ويقول: لا تتحدث عني وباسم صاحبة حبة المشمش وعنقود العنب، فعندما أريد أن أنادمها، فإنني أنادمها أنا وليس من حقك أن تكتب عن هاجسي معها بلساني.

أعترفُ أنني بسبب عشقي لها كتبتُ، وربما شهيته إليها جعلتني أكتب، وها هو أخي يستغرق في قراءة تطريز على عباءة الحلاج، ويصحح لي بعض هفوات اللغة، وكنت أنصتُ معه كأنني لم أكتبها أنا، بل كتبها الحلاج نفسه:

(قالت له: هل صليت؟ قال: دون صلاتي معك التشفع إلى الله باهت.

أغمضت عينيها وقالت: لنبدأ بالحمد.

قال: لا، نبدأ بالله واسم الله، وما يأتي بعده عوم في العطر وآية على الجباه؛ لهذا جعلتك مني فاجعلني منك ليطمئن قلبي.

تسأله: وإن لم يطمئن؟

يردُّ عليها: يحتاج إلى شفاعة إمام.

ـ ومن أقربهم للشفاعة حتى يتشفع عنده؟

يقول: هذا الذي جعل سلمه إلى السماء سيف قاتله، فمن إرث الحلاج هذا اللوح الذي بقي مطرزاً على عباءته، وجدي سرقه منه مقدمة لموضوع إنشائي في معناه، هناك قولٌ أثريٌ هامش يهتف لكلِّ من يضع الشمس في عينيه أول الصباح: خذ هذا الضوء واخبزه في تنور قلبك، فرغيفه سيطعم كلَّ جياع العالم، ذلك لأنَّ من تعاليمه ما استنسخه أبي، ثم وضعه تحت وسادة أمي، الغاية في النهاية حلم، وكلُّ حلم دون إغماضة جفن ذابل، وكل ذابل لا يعرف الحبّ. ومن لا يعرف الحبّ لن يصل إلى الجنة حتى لو أركبوه على عربة ورد، وعندما علقوه على خشبة الصلب سألوه: كم عندك من إرث، ولمن تهبه؟

قال: لا شيء غير عباءتي هذه؛ لأن الأيقونات الخضراء مشت على خدّ العشب وهي تحفظ نوتة أغنيتك الأخيرة التي تقول: «إذا الحبّ أراد الأبد فليتجه أينما تتحرك أجفانك.»

غرق أخي في النصّ ودمعت عيناه، وقال: هذا الرجل تتيه معه الأفكار، وقد قرأت له ما كتبته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن مستشرق فرنسي، وإن كان معك الآن أود أن أراه.

قلت: هو لازم دكة باب النبي يناجيه بنجوى ما فيه، ويستظهر معه خبايا الرؤيا ليتلقى ما يعتقده مصيراً قاسياً يوم نرجع إلى بغداد، إن أردتَ أن تذهب إليه بصحبتي.

قال أخي: المكان الذي تسقط فيه صريعاً لا يمكن أن تغادره روحاً، نعم يا أخي غادرته جسداً بنعش، ولكن روحي أبقت سلوتها، وهذا الدفتر على رابية التراب.

قلت: سأخبره ما تمنيت من لقياه.

قال: في الحرب هذه مشاعر تقترب من الهلوسة، لا صوفية مع المدافع، ولا دراويش مع الغازات السامة، فنحن نتوقى بقناع وقاية وهم يتوقّون بنوره إذا ذهبوا في الشطحة لكي يروه، ونحن نرتدي الأقنعة كي لا نرى، ومتى نزعت القناع ذهبت إلى وجه أمي، ومتى رأيت دمعتها في أجفانه أيقنت أن المساء الأخير لي سيكون فوق هذه الرابية.

استعدتُ مع أخي ذكريات طفولتنا القادمة محطات كثيرة؛ منذ أراجيح الأعياد، ومواسم الفقر في أجفان أبي قبل موته المبكر، ومروراً بأفلام السينما وشهية أغلفة المجلات الفنية حتى اليوم الذي رافقت أمي لأودع أخي عند بوابة التجنيد، حيث سيذهب جندياً إلى الحرب.

محطات في ختامها عانقت طيفَ أخي وبكيت، وفي صدى صوت راعي قطيع الجواميس من أهل المعدان وهو ينشد عن فراق الأحبة.

وحين عدتُ، كلُّ الحوارات مع أخي كانت مدوّنة في بقاياي، دمعة لم تغادر أجفاني، ليختصر الأمر لما أراد به مواساتي، أن تلتقي بمن تحب طيفاً أفضل من أن لا تلتقي به أبداً.

ثم قال: أهديت لأخيك رؤيا تنوب فيها عني، وكأنك تنزع عباءتي عن كتفي وتضعها عليه، ولكنها لن تفعل شيئاً؛ لا تدفئه ولا تنوب عنه بشيء، فإن تمنحه البركة فلأنه عند رب رحيم.

قلت: أعطيته إياها ليعرف أنني أتيث إليه برفقة حنونة وليس بحافلة الريم التي كانت تقلُّ الجنودَ إلى الجبهات، بعضهم يعود إلى أهله بها مجازين لأسبوع، وبعضهم الآخر يعود بالنعوش إلى رقدةِ الأبد.

كان أخي يقول: إن حافلة الريم التي تقل الجنود هي حافلة «اليانصيب».

قال الشيخ: ونصيبي أمنية الرؤية قبل الحكم وقصاص الظالم.

قلت: ما الرؤية؟ وأنا أشعر أنك ترى جيداً! حين تفسر لحظتك بما تعشقه، وقد لا أتفق معك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهذا البوح من عشق امتلاك ما لا يحقُّ لنا امتلاكه إلا بطلب البركة والرّحمة والعافية والرزق.

قال: الرؤية جمع ما أردت امتلاكه: البركة والرحمة والعافية والرزق، ولا يتم هذا إلاّ بالعشق.

قلت: احذر كي لا يسمعك الناس، فبعض زائري المكان يعي ما تقوله.

قال: وما أقوله سأعلنه جهراً في هذا البوح من الشعر.

قلت: لا تبح به فتُعزف، وربما يسلوك إلى والي البصرة فهي أقرب إليهم الآن من بغداد.

قال: أنت كتبت بوحاً عن عباءتي لا تؤنسه وحشة أخيك في موته بعيداً عن دمعة أمك. أما أنا فما أتلوه هو أني أؤنس روحي، ومؤانسة الروح عبادة، ومن عاش عبادة صلتها القصيدة أصبح عشقه ممكناً، لهذا كلما أردت التقرب منه أنشدتني القصيدة قبل أن أنشدها.

ذهب ذهني للاستماع إليه. أخرجتُ قرطاساً وقلماً، وحين انتهى من تلاوة تهذجه العميق قال: غداً منذ الصباح اذهب بهذا القرطاس إلى أخيك وليدونه في دفتره الصغير، فربما ترتاح روحه لما تبقى من أثر شظية المدفع في جسده.

صباحاً والشمس تغطي بالدفء نعاس القرى، حيث ينتظر النهار الطقوس ذاتها، ومن يبكر أولاً من البيوت، فهو يبكر من أجل أن يحمل الخبز وأواني اللبن الخاثر لفطور زوار النبي الآتين من مدن بعيدة.

يفرح أخي وهو يشعرُ أني أيقظته على نبض كلمات تبوح بهاجس عشق، فيخبرني أن الحرب تكتشف إحساسها بالحبّ حين يبدأ الجنود بفتح أجهزة الراديو ليستمعوا في أول الصباح إلى أغنيات فيروز، وفي الليل ينقسم الجنود في بهجة السماع قسمين: القسم الأول يذهب إلى أغاني أم كلثوم ونجاة وعبد الحليم ووردة، والقسم الثاني يذهب إلى داخل حسن وسلمان المنكوب وعبد الزهرة مناتي وفاضل عواد.

بمتعة يقرأ أخي نصّ الحلاج، ويطلبُ مني أن أردّد بعض المقاطع معه، ويخبرني أن اللذة في السماع حين يكرم الصوفيون شهداء الحرب بأوسمة عشقه، ومثل أجراس مطر ضوئي لشمس جنوبية حنونة أرددُ مع أخي ما تلاه الحلاج في الليل، وقد خشيت كثيراً أن يسمعه الزائرون كي لا نقع تحت طائلة التفسير، ويطلب من العسس أن يأتوا من قلعة صالح ويعتقلونا معاً.

كان عنوان النصّ (هو على الخازوق، ويذكر الله) وفسر لي الحلاج دهشة كتابته أنه عاش اللحظة الآنية واللحظة القادمة ليكتب بشوق إلى زمنين يتخيل أنه هناك معي لحظة طرق المأمور علينا الباب لنستلم نعش أخي شهيد الحرب، فهو في النصّ يؤثث لحلمي المستقبلي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تكون روحه موجودة، وتطوف سماء العولمة، وهو يقول لروح أخي: إنّ روحه مثل روح أخيه تأتي إليه عبر أزمنة بعيده وتستحضره، ومن يستحضر عليه أن يمسك إسطرلاب الزمن ويعبر، وكانت القصيدة التي شعر أخي بمتعة لذيذة في قراءتها عبوراً من اللحظة التي كنا فيها أنا والشيخ نزوز ضريح النبي العزير إلى اللحظة التي جلبته فيها إلى القرن الواحد والعشرين، وفتحت له صفحة في موقع التواصل الاجتماعي (الفيس بوك):

(سبحان الله! تسعة أرطال دم، ودمع سكبتها أنا الحلاج على المقصلة، وإلى اليوم العالم يسكبُ المطر للسبب ذاته، فيسكنك منه سكينة، معقوف كصليب مكسور على صدره. أتخيل أفياء حواري الجنة فوق الخشبة تطين، فأرفع رأسي، لا شيء سوى غيم يمطر، وطائرة ميراج من زمن العولمة، وفي تصور كهذا أصعب أن أتخيل موتي صلباً، لكنهم علقوني، فتسكنني ابتسامة وأقول: الآن أنا ويسوع أصدقاء. فقلتُ لهم: دعوا الحكم ينفذ في عاشوراء.

قالوا: لا يصلح هذا!

قلت: ولمَ؟

قالوا: سيحدث زلزال.

لهذا أشعر أن موت الصوفي معطراً بنحيب مقصلة وشهيق المسمار، وتلك هي من الرؤيا مهدت الحلم لدافنشي ليرسم موناليزاه، فإلى أين تنظر، وكلُّ الوجوه التي حضرت تحسب الأمر فرجة، فيرفع رأسه الله ويهتف: أنا الممثل والمخرج والجمهور وهؤلاء كراسي.

وأخيراً سيحملونني إلى المقبرة دون شاهدة تقول: من أنا؟ وعلى الرغم من هذا أثري إلى اليوم معلوم حتى في Googel).

لثلاثة أيام كنتُ أتلقى التعازي من زائري المكان، وقد أصبحوا يدركون أنهم يقرأون الفاتحة لأخي الذي سيسقط شهيداً بعد مئات السنين، وعندما يتصور بعضهم أنه شهيدٌ في حرب الزنج قريبة الحدوث، أصحح لهم بأن هذه الحرب كنتُ أنا فيها جندياً، ونجاني الله، لكن جرحاً أصابني، تداويت منه، وطوال مدة المداواة لازمت هذا الشيخ الذي كان يتلقى التعازي، ومن يرذ أن يحضنه معزياً يهرب الشيخ بجسده عنه ويهمس له: لست أنا صاحب العزاء بل هذا الفتى.

في الليل يحب أن يراجع ما تخيلته عنه حين افترشت عباءته نصاً نثرياً بلغة العصر الذي استشهد فيه أخي، وأجابني بردٍّ لنصٍّ نثري من العصر ذاته، وحين أزور أخي بعد انتهاء مجلس العزاء في الأيام الثلاثة، حيث أبقى عنده حتى منتصف الليل أراه متأثراً بنصّ الحلاج، ويخبرني

أنّ الحلاج كان يصلح علاجاً روحياً ونفسياً لقلق الجنود، ولكن فقط الجنود الذي يجهلون الطريقة التي حوكم فيها، ونفذ فيه الحكم بسادية غريبة كانوا يعتقدون أنها العلاج الوحيد لجعله أمثولة إلى كلّ من يريد أن يفكر لاحقاً بمثل ما كان يفكر فيه، ويدعوا إليه ويمارسه ويترنم فيه بقصائده.

مع متعة النصّ بكى أخي في الليلة الثالثة لأنني سأفارقه، ووعدته أن زيارتي الأخرى إليه عند عودتنا من آخر محطة سنتوجه إليها في الغد، ثم ترجاني أن أصحب الحلاج إلى هذه الرابية في عودتهما، فأخبرت أخي: متى كان هناك ضريح مولى، أو إمام فهو لا يفارقه حتى إن امتلك اختلافاً مع صاحب الضريح. إنه يشعر بأنّ الأمكنة المُزارة تجلب له فوضى البحث عن هدوء، وأخبرت أخاه أن الحلاج لديه عبارة استقاها من محطات سفرنا تقول: الحواس تهدأ وتنفصل عن صخب أقرب الدفوف إليها، وهذا يسميه شهية الانعزال.

قال أخي: يوم كنت أقرأ كافافيس وأنا شاب كنتُ أشعر أن الكاتب اليوناني يفكرُ كما يفكر الحلاج، ولا أظن أنه تأثر به أو سمع به.

قلت: التأثر يأتي من توارد الخواطر أيضاً.

أترك دمعة أخي وهو يحذرني من مطبات الطرق ونصيحته لي: لا تمشيا في الليل، فالنجوم لا تضيء، وصاحبك يعرف جيداً أن النجوم في الليل تنتبه إلى غفوة العاشقين فوق الأسطح ولا تنتبه إلى دواب المسافرين، فتعثر في بركة أو ساقية، فيضيع صاحبك في الظلمة والطين وينكسر فيه عظم الكتفين فتحار به.

نقلت دعابة كلام أخي إلى الشيخ، وأحسست أنه ابتسم وقال لي: تمنيت أن تخبره أن سفر الليل غير جائز في عرف من يريد من منادمة النجمة رؤية رجمته، وهذا لا يتحقق إلاّ في الجلوس أو السجود.

بدأنا المسير، وأعرف أن النبي صنع في أجفان الحلاج الأسئلة والمدائح والرؤى؛ هو بتوراته والحلاج برؤيته، وحسبت أن الأمر سيكون سجالاً بين كلام كهنوتي وتعبير صوفي، لكنه لم يكشف عن الذي دار بينهما، وقال: الأسرار شعائر الليل ولا تتلى في النهار.

قلت: سأنتظرها حين نستريح ليلاً.

قال: وقتئذٍ سنكون قرب ظلال أبينا آدم، ولا داعٍ لتعرف سرّاً عندما تعرف مكان نشوء أرحامنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عرفت أنه يريد الهروب، فأنا لا أعرف ماذا كان يحصل بين القبة والصوفي حين أكون أنا مع أخي، وبالحدس وتجربة محطات السفر معه أدرك أنه في كلّ مرّة يطلب من صاحب المكان الاندماج، وحين أخبره أنه لا يحتاج هذا، فالسماء التي يشخص إليها بأجفانه وما يسكنه تجعله يرتجف ويهذي شعراً، حيث يتربض الكثير في تدوينه عشقاً أو من أجل وشاية، وما كان يتلوه في السفر تكفلت به أنا، ولكنه عاش موذة الوصل مع المزارات والأضرحة التي كنا نزورها، نكاية بما كان يكفر به بين مشايخ المذاهب التي ينتمي إليها أصحاب تلك الأضرحة، وفي هذا أمر غريب أردت منه تفسيراً فقال: ليس غيرهم من يحمينا، فالطرقات البعيدة تنتج الغرباء والمصائر التي لا تستطيع التكهن بنتائجها. صحيح نحن لسنا قافلة تجارية، ولكن ما في جبتي يساوي كلّ كنوز الأرض.

وحين عرفت قصده أشحت بوجهي عنه وقلت بصورة من الغضب: لنكمل الطريق ونحن صامتون.

وأشعر به دائماً يعرف لحظة الغضب والضيق، فيظل صامتاً ويكمل الطريق ولن يردّ علي إلاّ عندما يشعر أنني ارتحت، وأكلمه الآن بمودة لأخبره أن حمارينا تعبا، وعليهما أن يستريحا ويشربا الماء ويأكلا القصب.

وكلما جلسنا على الضفاف علسنا ما لدينا من خبز وتمر، وقد أكرمنا بيتٌ من الطين، كان قريباً منا، بآنية لبن.

كانت الشمس في ظهيرتها حارة، فيستظل هو بعباءته وأنا أستظل بقصب كثيف نابت في ضفة النهر، بينما كانت الأهوار هي ذاتها التي خدمت بها جندياً، وقد قال لي: هذه الشمس لا تمنع صفاء الظلّ مع حالتك. قد يكون النهار على الصوفي ثقيلاً، لكن متعة الليل تجعلك سعيداً في مزاولة ما متعته بفك فكرتك إليه وروحك في سباحته في سمائه، وعلى الرّغم من هذا أن توفر الماء والخضراء يحتاج منك إلى أن تقول قصيدة تجلب الوجه الحسن.

قلت: هل وجه الحلبية وردة الصباح؟

قال: الوجهان معاً.

ولأني لا أؤمن بما يتطرف فيه أخذت إلى أجفاني وجه وردة الصباح وتمنيت أني ذات يوم أزور حلب، لكن مفارقة الزمن معي لم تضبط بما تمنيته، ففي الزمن الذي أسستُ فيه صفحة للحلاج على الفيس بوك وصار بإمكاني امتلاك جواز سفر، فتذكرتُ حلب والشوق إليها، وكانت الصدمة أن الوصول إلى حلب من بعض المستحيلات؛ لأن حرباً تدار في شوارعها بين جيش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسمه جيش النصرة، وهو قد لا يشبه جيش الزنج في تصوراته ومعناه ومبادئه، والطرف الآخر كان الجيش السوري.

وأشعر أنَّ طوال السفر، وحتى عندما كان الحلاج يديرُ صفحته مع غوايات الأصدقاء وأسئلتهم، ورغبة العاشقات والمطلقات والأرامل بتقديم المساعدة وإبداء الرأي، لم يتطرق إلى رغبة بزيارة حلب والبحث عن بيت تلك الجارية التي كانت رسائلها إليه عناقيد عنب، وكنتُ أظنُّ أنه تمنى الجلوس على دكة بيتها واستعادة العطر في بهجة صباحها ومحنتها من عالم الجواري الذي لم تتعود عليه، فتشابكت الأزمنة لدي وقلت: لو أنَّ وردة الصباح سباها جيش جبهة النصرة، أو داعش في معارك حلب لبيعت سبية في أسواق الرقة، وستفتش بين الوجوه عن حلاجها، ولن تجده ذلك لأن الصوفيين يبتعدون عن ظلال السيوف والبنادق ويقتربون إلى ظلال الله والوجد والتكايا.

تركنا ضريح النبي وتركت تلك الرابية التي كان أخي يؤلف فيها خواطر أزمنة الإجازات التي يعود فيها ليؤنس جفن أمي بمزاحات فرح، ولسبعة أيام كانت تغادرُ مملكة القلق لتعيش في مملكة الفرح، وكنتُ أنا أستغل إجازته ليصحح لي واجباتي المدرسية وهو يسألني بسؤاله الغريب: تكتب بعاطفة صوفي، فمن أين عرفتهم؟

أرد هروباً من شروحات قد لا يصدقها وأقول: أراهم عند باب أضرحة بغداد حين نزورها أنا وأمي من أجل عودتك سالماً من جبهة الحرب.

قال: أنت تراهم بسعة خيالك المبكر؛ لأنهم اختفوا منذ عهود بعيدة ولم يبق منهم سوى كتب التاريخ التي تتحدث عنهم، فأقول: هم موجودون؛ أنا أراهم وأصادفهم وأنت لم ترهم.

يضحك أخي ويقول: تلك فنتازيا لا أتخيل أن يعيشها صبي مثلك.

الآن هذا الصبي بعد موتك بسنوات يُجلَب إلى المكان الذي قُتِلَ فيه واحدٌ من أشهر الصوفيين، حتى إنه يعرفك جيداً أكثرَ مني، وكان يتمنى أن يزورك معي؛ لكنه ارتبط روحاً بقبة النبي، وكلُّ خلاصته لثلاثة أيام قبل أن نشدَّ الرحال إلى شجرة أبينا آدم أنه كتب نصاً، وأحسستُ أنه يهديه إلى أخي الذي نقشه في دفتره، وصار من بعض شوق القراءة لديه بعد أن منعت أجهزة الراديو عن الموتى، فهي أنيسة من يعيشون على الأرض وشهداء الحروب سوف تغني لهم الملائكة، ولن تكون هناك نشرة موجز أخبار كفاصل بين أغنية وأخرى، فكان خلاصة الود ما علق به أخي تحت النص الصوفي المهدى إليه من الحلاج حين كتب:

(تحزَّم بالأخضر وتعمم بالأسود، أما الأبيض فأبقيه لعرس أخيك، والألوان الصوفية أكثرها

زرقة؛ لأنّ بيت الله هناك، والأحمر عش الحمام والشهداء، فالأوّل يذبحه سكّين والثاني تذبحه طلقة، والصوفي ذبيح العشق.

تحزّم بالأخضر فكم كربلاء فينا؟! وكم عميقاً نهز هذا البكاء؟! لهذا تحزّم بالخبز، وتعمم بأغاني الفقراء، وخذ معك معتزلاً إلى عزلة الكتاب، وإلى شفاه امرأة خذ معك الحلاّج).

وحين رأى الحلاج وقتئذٍ ما كتبه أخي حاشية لقصيدته قال: أخبره أنني أحبه، وأنني أهديه خلاصة ثلاثة أيام عند كاهن هذا المكان، وتأسف نيابة عني لأنني لم أزره.

تلا الخلاصة وكتبتها، ثم قال: صباحاً نسير، فانهض فجراً وأرسل الأمانة إلى أخيك، وكانت تلك الخلاصة مأثرة الروح عندما يؤنسها المكان وتندمج معه وتصير هي هو ويصبح هو هي.

دمعت عينا أخي خشوعاً لبهجة الرّجل في مودته مع القبة، وقال: هو يفهمها جيداً لأنها ترتبط بطقوس عمق لم نكتشفها نحن في أيام جنديتنا، وكنا فقط نمرّ على المكان لطقس اسمه الزيارة والدعاء ليجنبنا صاحب المكان مجهول الحرب وشظاياها. بقيت أشهراً قريباً من الضريح، وكنا نعتقد أنه يزار لمنح البركة، بينما صاحبك الشيخ يعتقد أنه يُزار لترميم ما في الرّوح من خراب وليوقظ الأسئلة.

أخذ أخي النصّ، وأصبح يدوّنه تحت النص الذي أتيت به لاحقاً، وقال: شمسان من عباءة الصوفي بإمكانها إحراق العالم بالحب.

الآن وفي غمرة الشمس التي ترفع فوق رؤوسنا مساحات الضوء وموج النهر وزراق الصيادين، أتخيل متعة أخي وهو يكتب في دفتره خلاصة مشاعره، وما حصل عليه الحلاج لجلسة ثلاثة ليال في ضريح النبي العزير:

في حضرتك، ولثلاثة أيام، يا كاهن بابل والأهوار، حيث يأتي المعدان إليك بالخبز ثواب عافية البدن والروح وموسيقا هذا الوجد وتلك الروح أقول: حبّ الصوفيين متعبٌ؛ لأنّ أجره على الله وجفن الجواري خلف النقاب، ولأنك في روح الغائب سيشتعل فيك الثقاب، مثلما أحرق الزب نمروداً، بلا قبلة في الشفاه كل شيء يُباد، فقد اكتملت في الرّؤى تفاصيل عينيك، وجبت المدن، فخطوتي ثابتة وقلبي يسير، نبضه الأرصفة ودمه المصير، وحين رأيتُ في كحله خارطتي، وشعرت أني وصلت إليك نزعت ما عليّ وطرقت الباب.

أعرف حبّ الصوفيين شجاراً في لحظة طيران، والقباب سماؤنا، والرّيش عباءة ستر، والظمأ ماء النهرين، وحين اقترب الفجر قسمنا اللحظة للتصفين: نصف لصلاة الفجر، والنصف الأخر

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

للأحضان، ولهذا، أيها النبي، حبّ الصوفيين مُتعِبٌ يتمزّق فيه الحرف إلى ألف، وينال الجسد رعشة، وتقصم القشةُ ظهرَ الجملِ، وتأتي في ليل الكوفة كلّ الصين، وسأختصر الرؤيا عندك وأقول: لقد رأيته، وسأتذكّرك بحرارة قبلة.

ولن أقول: إني، في ترحالي إلى شجرة الأبد في ملتقى النهرين، نسيته، سيصير الدمعة في العين. والحكمة والقصد القصد، في حبّ الصوفيين، الغيمة دكّة وسرير يتمدّد فيه اثنان.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الفصل الثالث عشر

نهاية الرحلة، تحت ظل شجرة آدم

وعند بهجة أخي تبدو خطوات راحلتينا على الأرض مسيراً بطيئاً؛ لأنّ الشيخ أراد أن يتأمل خضرة الطريق وسماء القصب حتى لا ينسى الود الذي أقامه مع طيف نبي الأهوار لثلاثة أيام. ونصف نهار حتى لاح لنا في الأفق أغصان شجرة عالية يشعر من يراها أول مرّة أنها ذاهبة إلى العمق البعيد في أفق الزرقة، وقد عقب الحلاج على المشهد: تلك خطوات الأرض إلى السماء عندما يقرّر الصالح أن يهب إلى مكمن النور أو يأتي به إليه.

Telegram:@mbooks90

ثم قال: يا آدم أنت أبونا، ومن له أب له رب، ومن له رب تجوز له المكاشفة، ومن له مكاشفة يتمتع بها روحاً وسيعذب من أجلها جسداً.

قلت: هو نهاية مطافنا، فلماذا لا تستجير به، وتبقى عنده تؤسس تكية اسمها تكية شجرة السدر، وزائرو المكان كثيرون يطعمونك ويشربونك حتى تنال ما في روحك من ثورة قد تؤدي إلى هلاكك حين تعود إلى بغداد؟

قال: وأنت؟

قلت: أعود ليلة لأكون قرب أخي في العزير، ثم أعود إلى بيتنا وأسرد لأمي ما دار بيني وبين أخي.

قال: أمك العباسية أم أمك العولمية؟

قلت: كلتاهما ستشعران أن أخي الشهيد لاحقاً هو ابنها.

قال: حسبث السفر معك ذهاباً وإياباً، فلا أتخلى عن ظلّ رافقني وأن المكتوب هو ما يجب أن يكون!

قلت: ولكنها المقصلة!

قال: وطعمها في عيوني مثل المكحلة.

وعلى سواد المكحلة في عيون الطرقات اقتربت شجرة السدر، وطلب مني التوقف، وقال: لقد رأيتها جداً، وقبل الوصول أستحضر من أتيت من أضلعه، وأتطلع في وجه من جئت من رحمها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت: هذه أول مرّة تستعجل الطقوس.

قال: لأنهما أبوانا، وعلينا أن نحتفي بهما قبل أن يحتفيا بنا.

قلت: وماذا لديك لهما، وأنت في بهجتك لا تعرف أن تنادي سوى أطياف الوجوه والأضرحة، والمكان الذي إليه مقصدنا ليس سوى ظل شجرة؟

قال: هذا الظلّ صنع الحركة في الأرض ونطق الكلمة، ومنه تستطيع أن تحضر وتغيب وتتمنى.

تذكرتُ أمي في حزنها من أجل أخي وهي تقول: إنّ ابن آدم للحلم وليس لقميص يصبغه الدم.

وحين استغربت من عبراتها، سألتها من أين لك هذا الوصف؟

قالت: أخوك نطقه أمامي ذات يوم.

عقب الحلاج على هذا قائلاً: وحتى نبقي حلم أمك فنحن سننام تحت السدرة ثلاث ليالي، واحسبها أنت ليالي مأتم أخرى لموت أخيك.

قلت: استشهاده وليس موته.

قال: في الحرب كلُّهم يقول: أنا شهيد، وفي الحبّ كلُّهم يقول: أنا العاشق وفي انتظار نوره، كلُّهم يقول: هو لي.

أوقفت الراحلة، والشجرة بدت واضحة في معالم المكان، حتى إنك تكاد تسمع صوت الماء الذي يجري ليس بعيداً عنها، وهناك دريكة لدراويش، استغرب الحلاج من حضورهم وهو يقول: آدم لم يكن صاحب طريقة، بل هو صاحب الحياة وصانع خطوتها الأولى، فلماذا يستعرضون رقصهم وخناجرهم أمامه؟!

قلت: هم يريدون النبي محمد، ومحمد جده آدم، ويقولون: إنّ أبانا في نزوله كانت أجفان النبي محمد (ص) معلقة في أجفانه، ويقولون: إنّ أول جهة استدارت فيها رقبة النبي آدم كانت صوب مكة.

قال: وأنا أستديرُ للجهة ذاتها، ومن كانت جهته مكة سيرى نوره طالعاً منها، وله طريقان، المدينة المنورة وجهة قلبي.

قلت: تعطي لنفسك ما ليس لها، فالنور يذهب إلى المدينة وعيون الفقراء والمحتاجين.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

قال: والعشاق أيضاً، وأنا عاشق.

مسافة أقل من نظرة الرمش في مداه، أتانا نور الشجرة قبل أن نأتي إليه نحن، وكانت الشجرة الفارعة الطول، المتشابكة الأغصان، كبيرة الظلّ هي الاستراحة الأولى لأبوينا آدم وحواء في نزولهما الأزلي على الأرض، وعلى كلّ غصن رأيت قطعة قماش خضراء مجدولة بعقد واحدة أو اثنين، وهي تعبيرٌ من زائر المكان عن أنه كان يمتلك نذراً تحققَ بفضل شفاعة النبي وشجرته.

وعندما لامست الظلّ البارد للشجرة أحسست براحة غريبة؛ أنني أتيت إلى الرجل الذي أنتمي إليه، بينما الحلاج طلب مني أن يجلس متكئاً على جذع الشجرة، وقال: أودّ أن تلامس كتفي لتباركهما، وكيلا يؤلمها قصاص قادم.

أخبرته أنّ المكان هو للأماني الجميلة، وليس لانتظار الأقدار المؤلمة.

قال: لأنه أبي سأشكو إليه سوء الظنّ بي.

قلت: هو لم يرَ الله مع أنه كان في جنته وقد خُلِقَ فيها.

قال: الرؤية قد لا تُدرِك بعين، القلب من يرى.

قلتُ: من يعي يحقُّ له أن ينظر بقلبه، ولكن ليس أن يتجاوز حدود ما يوصف به، وأنت تعرف أنه يمكن الإحساس به، ولا يمكن أن نراه.

قال: لا تغد بي إلى الجدل العقيم، آدم كان في حضرته صلصالاً مخلوقاً ليصير قلباً ودماً وعاطفةً، وأنا جئت لأستلهم منه ما يمكن أن يجعلني أطير في حضرة من يشعرني بكلّ صفاء، ثم صاح بقولٍ مسموعٍ من كلّ الجالسين تحت ظلّ الشجرة: هو الله مبتغى قلبي ولا أحد سواه.

وقتئذٍ عرف بعضُهم أن جليس المكان صوفيٌ، ومن أتى من أهل بغداد في هذه اللحظة عرف أنه الحلاج، وأغلبهم نصحوا الجالسين بالابتعاد عنا، وقليل من يؤمن بعاطفة الرؤيا لديه، وسبق وأن شاهد جلسته على دكة جامع في بغداد، أو عند ناصية في سوق الكرخ اقترب منّا وقدّم ما لديه من خبز وتمر.

كنتُ أنتظر الليل لأجعله يخلو مع صاحبي المكان، وما استغربته منه أنّ بدايات مناجاته وتأثير الوصل إلى شجرة النزول لم يتحدّث سوى عن آدم، ولم يُشِز إلى حواء بخاطرة مما أشعر أنها فيه مسكونة، وأغلب ما يتلوه هو استشعار أن الصوفي في حضرة آدم عليه أن يطلب منه وصالاً مع النور، وحينما قلت له: لم تأت على حواء بشوق الإنسان إلى أمه وتطلب منها حاجة، فهي كآدم عند الله؛ معزّتهما واحدة، خُلِقا من الطين ذاته وعُجنا في إناء واحد، وخرجا على

هيئةٍ متشابهة إلاّ فيما يخصّ أمكنة الأنوثة والذكورة، وقد نقلت إليها ما قرأته في دفتر أخي عن الرؤية إلى الجسد قبل أن ندلفه مع الروح لتظهر الصورة، وهو يقول:

الجسد في موسيقاه، وخليقته أرض لوجود المعنى وصيرورة، وحافز للمضي بعيداً في جعل الحياة ذات معنى وطعم وجمال، وما يوده الجسد ويريده ويشتهيه، ومهما كانت الدوافع والنتائج هي في المحصلة استجابة للعزف الخفي الذي يسكنُ دواخلنا ويوجه فينا البوصلة لنفعل شيئاً نحققُ معه راحة وارتخاءً ونشوةً لما يسكننا من نقصٍ تجاه ما نحسّ بأننا محتاجوه دوماً بعد فصل نهار متعبٍ من العمل، أو التظاهر، أو غمار ساحة حرب، ومن ثمّ ترانا ننشدُ الراحة للجسد المتعب في تخيّل الوسادة موسيقا تدعونا لسماع موسيقا هادئة اسمها (المرأة).

فقال: أخوك، بسبب عطش الحرب، يبحثُ عمّن يرويه، فكان يتمنى المرأة بتلك الصيغة أن يكون جسدها مطراً، وأظنُّ أنّ حال كلّ الجنود هكذا.

قلتُ: ومن أين تعرف بأحوالهم وأنت لم تدخل حرباً؟!

قال: على طول الطريق الذي كنّا نسيرُ بمحاذاته عند ضفاف دجلة والأهوار، كنتُ أرى خنادقهم وأشعر بخواطرهم وأعرف ما كانوا يتمنون.

قلتُ: هم أيضاً كان لديهم حواءات يقاربون بها رغبة آدميتهم، وأخي يكتبُ في هذا المسار.

قال: سيختلفُ الأمرُ حين وصلنا إلى هذا المكان؛ ذلك لأنّ القدسية واجبة والتعامل بها لن يكون شائعاً؛ وإنما لبضعة من يشعرون، وأنا من الذين يشعرون، لهذا أردتُ من آدم بركة ووسيلة، وأنا أناجيه أطلب منه أن يوصل سلامي إليها، وأعرف أني لآدم مسكون بسؤال قد أخجل عن طرحه لأمنا حواء.

قلتُ: لا يخجل أن يطلب الابنُ من أمه ما دام يستطيع أن يطلب من أبيه.

أدركتُ أنّ الحلاج يريدُ من أبي البشرية تواصلاً مع العلا.

سألته: إنك طوال حياتك تعتقدُ بجلب النور إلى جبتك، والآن تطلب منه نوراً!

قال: هؤلاء خزين لما يشحُّ عندنا فيمنحوه لنا حتى تستدام المحبة، وكنتُ، مع كلّ مقام وضريح في محطاتنا، أطلب هذا، ولكن من أبينا النبي الأول سيصل كفاً هائلاً، ذلك لأنه كان فوق وأتى إلى هنا ليكرمنا بما غسلته وتشبع فيه من نور.

هذا هو المكان، شعرتُ أنّ أفقه أبعد في أمنيات الحاضرين، والشيخ هو من يصل إلى هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأبعد، وقبل ليلة من لحظة هذا الوصول حين عرف أخي أن وجهتنا في الغد ظلُّ شجرة الأبوين، قال: حين كانت جبهتنا قريبة من القرنة في قاطع اسمه جنون كان الجنود يلوذون بهذا الظلّ، وبعضهم ينتخيه من مكان وقت القصف، وبعضهم يُخرج من جيبه غصناً يابساً أتى به من الشجرة فيظلُّ يشمه، والكثرة من هؤلاء ابتعدت عنهم الشظايا، وآخرون وهم يشمون الغصنَ اخترقت الشظية أجسادهم، وكان الغصن يدوّن تواريخهم مع الحياة.

يقولُ أخي، وقد أخرج غصناً يابساً صغيراً من جيب قميصه: المهم أنَّ الغصن الذي جلبته من الشجرة ظلَّ يحفظني في كلِّ الجبهات التي حاربت فيها، وعلى الرّغم من أن طبيعة عملي لم تكن قتالية إلاّ أن موضعنا كان دائماً عرضة للقصف؛ لأننا لا نبتعد عن الخطوط الأمامية كثيراً، وفي المرّة التي قرّرت الشظية أن تتحايل مع مناعة الغصن وسحره اختارت لحظة ربما كان فيها الغصنُ غافياً وأتت إلى جسدي، ويوم رفعوني إلى النعش، ووصلت البيت وكنتُ أنت تبكي فلم تنتبه إلى أمي وهي تقتربُ من النعش وترفع غطاء النعش وتفتش في جيبي عن الغصن لتخرجه وتعاتبه.

قلتُ له: الغصنُ يابسٌ، يعني أنه ميتٌ، والميت لا يحمي الحي، وأظنُّ أن آدم صنع الظلّ لحياتنا، والأغصان تركها لتغير الفصول: فصلٌ يكون فيه يانعاً وفصلٌ فيه يكون يابساً، وأنت متى تقطعه من شجرته يفتْ، فلا ترجُ الميت أن يبقي لك حياة. كان لك أن تأخذ من آدم لحظة مجالسة لتعرف أنَّ الحياة لن تظلَّ أبدية معنا حتى عندما نلوذ معها بوليّ أو إمام أو نبي. ثمّة قدرية لا تمنعها الأغصان وقطع القماش وأصابع الحناء. من يجلس تحت شجرة آدم، كما أظن، وأنا ذاهب لأجلس تحتها، عليه أن يستعيدَ من الظلّ دورة حياتنا.

لحظة عرف الحلاج بقصة الغصن، قال: لهذا لن أجلب غصنا، أخبئه في جيوبي؛ لأنّ المقدر معروف بمنطق ما سأبقى نيله والحصول على ضيائه والتبرك في حضرته، ولكني سأقطع غصناً كبيراً ليكون عصاً للاتكاء في العودة، فقد أشعرني الذهاب بتعب الجسد وسيكون الإياب أقسى.

أتذكرُ وأنا أفتح صفحة للحلاج على موقع الفيس بوك أن واحدة طلبت صداقته اسمها غصن، وحين سألها: هل تحبين الشجرة فقد كنت غصناً؟

قالت: ذلك لأنّ الغصن الذي كنتُ أتسلق به يَبِسَ وانكسر، فحملتُ منه الاسم بعد أن كان اسمي نهلة، وغصن هو زوجي الذي أخذته الحرب.

وأظنُّ أنّ الحلاج وقتئذٍ تذكر حادثة الغصن الذي بقي في جيب أخي، والذي لوّنه الدم، فصار بلون عود البخور، أخرجته أمي من جيب بدلته العسكرية المدماة وهو ممددٌ على النعش، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الليلة الثانية أشعلته بعد أن عرفت أنه غصنٌ من شجرة آدم، وأرادت منه رائحة طيبة تظنُ أنها رائحة جسد أخي.

الآن والأغصان تتدلى يابسة من شجرة الجدّ المبارك، أفيقُ عند حياة أخي الذي تمسكت بطرفِ غصنٍ، أو اصبع حناء، أو قطعة قماش خضراء، فأشعر أنّ الجنود لبوابات الأمل في الحياة عندهم لا تتعدى تلك الأشياء، وأغلبها مقروء عليه من قبل سادن ضريح أو مقام، أو أنّ واحدة من أمهات هؤلاء الجنود قد زرن الولي وجلبنَ واحدة من تلك الأشياء، عدا الغصن لم أعرف أنّ الجنود الذين خدموا في جبهة الأهوار القريبة من القرنة كانوا عند التحاقهم من إجازاتهم يستريحون تحت ظلّ الشجرة، ويأخذون غصناً صغيراً من الشجرة الأثرية المعمّرة وهم يعتقدون أنّ الغصن خيط نجاة من شظايا الحرب.

وهكذا يجعلني أخي وشجرة آدم أكتشف العلاقة بين الغصن اليابس والحرب، ذلك لأنّ الغصن اليابس أنْ يظلّ على الشجرة لموسم ربيع قادم سيعود إليه الاخضرار والحياة، ولكن عندما يُقطع سيبقى ميتاً يباباً كالحرب التي لا تمنحنا سوى الموت والإياب، ولا أعرف لماذا يتلهفُ الجنودُ للحصول على غصن يابس! فيردُ عليّ الحلاج: لأنه آتٍ من شجرة مباركة.

يبرر أخي الأمر فيقول: إنّ الحروب ترتبط بالخريف، ولا ترتبط بالربيع، ولهذا تهوى الأغصان اليابسة لأنها خريفية. ويقول: إننا، بوصفنا جنوداً، نجدُ سهولة في الحصول عليه، فقد نراه مرمياً تحت الشجرة، أو نكسره بسرعة، بينما الغصن الأخضر قد يحتاج إلى سكين لتفصله عن الشجرة، ولا يمكن أن نقرب سكيناً من شجرة نبي.

لم يكن تفسير أخي مقنعاً؛ لكن الحلاج أضاف شيئاً من عنده وقال: مزّات نحرقُ الأشياء حتى تأتي لنا بعطرها؛ إنها تمنحك عصارة ما عاشت، والأخضر لا يحترق بسهولة ولا يعطي عطره كاليابس؛ لأنّ لديه مزيداً من الحياة، ولا يريد أن يجعل النار تستنطقه بما كان. انظر إلى أعواد البخور، نحن نتزكى بها وهي يابسة، ولن تعطينا ما عندها من طيب إلاّ عندما نحرقها، وكذا أغصان الحرب التي يضعها الجنود في جيوبهم، لن تعطي عطرها إلاّ عندما تحرقها الشظايا والرصاص.

الآن أجدُ تحليلَ الحلاج منطقياً وشاعرياً أيضاً، وأشعر أن اليابس لا شيء يمتلكه، ويأمل فيه ما دام قد قطع من مكانه وحلّ فيه اليباب، فيحب أن يمنحنا جمالاً آخرَ يمتلكه، أن يحترق ويصبح عطراً.

لقد شكلَ الغصنُ هاجساً جديداً في محطتنا الأخيرة، والحلاج عدّهُ مضحياً وهدية آدم

للجنود وزائري المكان، شيئاً منه يأخذونه على أمل أن يمنحهم بركة البقاء، فلا يتعرضوا إلى شيء يبعدهم عن أحضان أمهاتهم وحبيباتهم وزوجاتهم، وعلى الرغم من أن أخي قبل موته كان يعرف الكثير من الجنود ممن أتاهم رصاص القناص في مكان الجيب الذي يضعون فيه الغصن، قبل أن يكون هو واحداً منهم، كان يؤمن بتأثيره، ومرّات كانت تسكنه شطحة رومانسية حين يكون على ضفاف النهر أو الهور، فيخرج الغصن ويحوله إلى قلم يدوّن به فوق الطين قصيدةً، أو يرسم وردة أو قلباً، ولهذا كان أخي يَعِدُّ الغصن تميمة وقلماً لاستعادة خاطرة وذكرى حين يكون الورقُ والقلم مفقوداً، وهو يشعر تماماً أن أول الكتابات كانت مكتوبة على الطين.

وبسبب هذا أصبح الغصنُ أكثر تمائم جبهات الأهوار قبولاً وقناعةً لدى الجنود، حتى إنّ سدنة الشجرة بسبب تهافت الجنود على قطع أغصان صغيرة منها ودسّها في جيوبهم خلسة؛ لأنّ السدنة باتوا ينعون كسر الأغصان لشعورهم أنّ الشجرة ستختفي بسبب قطع أغصانها، ولن يكون لها ربيعٌ آخر تزهر فيه.

قال الحلاج وهو يسمع مني ما كان السدنة يعتقدون به وينعون الجنود بسببه: آدم نزل ليتجدد، وكلُّ ما يتعلق به تنتظره فصول متعاقبة بين يباب وخضرة؛ لكن الحرب يبابها أن يموت جنودها، وربيعها أن يبقى أحياناً منهم. هذا كله يحتاجُ إلى بوح معه لتعرف منه متى يأتي الربيع فيخضر الغصنُ، ومتى يأتي الخريف ليجفَّ الغصن.

وبين الاخضرار والجفاف أعلمَني أخي أن مواسم الحرب تمضي هكذا، وعلى الرغم من أنني عشتُ أجواءها يوم أخذوني لأحارب جيش صاحب الزنج في المكان ذاته، إلاّ أني وجدت حرب أخي مختلفة تماماً في مشاعرها، وأدركتُ أن هاجس حروب الزنج قد تنتهي بنصل سيف، أو نبلة تخترق مكاناً ما بجسدك، فلا تميتك، لكن أدوات حرب أخي كان كلّ شيء فيها قاتلاً حتى الهواء عندما يتحوّل إلى غازات سامة، وتحوّل الغصنُ إلى تعويذة تنجي أخي ورفاقه من الموت، وقد تفعل مرّات ولا تفعل مرّات أخرى، وكان أخي من الذين لم يفعل الغصن لهم شيئاً، لكنه تمنّى أن يبقى في جيبه مؤمناً كما السومريين من أن الاخضرار سيعود للجسد الميت في العالم الآخر.

تحدّث إليّ أخي عن جهة يمكن أن تكون مكاناً سحرياً وخالداً في حياته المزهرة، واسمه دلمون، وقال لي: هناك في دلمون لا يتعفن الجسد ولا يصيب اليبوس الأغصان الخضراء.

وعرفتُ دلمون جيداً حين جلستُ مع روح أخي عند ضفاف دجلة، وقد أخبرتُ الشيخ أن أخي تحدّث عن جنة مكانها في أفق بعيد من جهة البحر.

CamScanner

قال: أعرفها، دلمون روحنا الصوفية الأولى موجودة في القراطيس وأخبار الأولين.

قلت له: وأخي يعرفها جيداً وفي دفتره قصة تتحدث عن حلم اثنين للوصول لها.

قال: وأتمنى أن أكون ثالثهما، فادفع لي بدفتر أخيك أستعره ساعة تحت ضوء قمرِ هذا الليل وسيساعدني فيروز القبة في توضيح الحروف.

فيجد الحلاج متعة وراحة فيما كتبه أخي وهو يتحدث عن دلمون التي لا تحوي أشجارها غصناً يابساً: الخبزُ والماءُ والتمرُ زاد كلّ سومري نوى على سفر يتمناه، غير أنّ الآلهة سمحت بكرمٍ لكلّ مسافر تناول الخضار التي يصادفها مزروعة في الحقول حتى من دون إذنِ مالكيها، ومع هذا تتحدث الألواح السومرية عن جمالية السفر وتصفه بأنه يتسيد رغبات الإنسان الذي يحلم بإجراء مكاشفة مع الآلهة، يتحدث فيها عن البؤس وعجزه المالي عن تقديم القرابين، وغير ذلك أنّ السفر إلى دلمون هو سياحة الروح، والروح التي لا تسافر ستنالُ اللوم في الآخرة؛ لأنها لا تمتلك خبرة المجادلة عما فعلت في حياتها، وتقول الألواح أيضاً: إن السفر متعة الشاعر الوحيدة، أما الفقراء فهو يقترب أن يكون دلمونهم الثانية، وعلى هذا الأساس يفكر الفقراء والجنود بالسفر إلى مدينة الحلم (دلمون) حيث لا ينعق غراب ولا يشيب البشر، والدائم فيها من الفصول هو الربيع وحده.

هكذا أنا والحلاج وروح أخي نعيش ساعات آخر أمكنة محطاتنا، ولم يكن آدم وحواء سوى الوجوه المتخيلة تحت ظلّ شجرة السدر، والذين تشفغ بهما الحلاج وهو يعيش إحساس قدريته مع المقصلة.

وفي صباح يومٍ جديدٍ حزمنا أمتعنا على راحلتينا، وبدأنا نمارس في حركة أجفاننا طقوس وداعٍ للأب الذي أتينا من أضلعه زرافاتٍ وأجناساً وألواناً. وكلّ حصيلتنا من هذه المحطة هو ما ذرفه الحلاج من دموع من أجل شفاعة أبي البشرية له؛ لأنّ سيناريو موته اقترب من الوضوح أمام ملامحه وقال قولاً غريباً قرّبه إلى المقصلة أكثر: ربّ نجني حين تكون معي ضوءاً داخل عباءتي، وخلّ صاحبة عنقود العنب تنام على سرير فمي.

لكن لا أحد يغفو عند الشفاه اليابسة والمترية لرجل يطوي طريق العودة بصفنته، ويرجو مني أن تتغير محطات العودة، فكنا نتوسط الأمكنة بين محطات الذهاب ونقيم فيها، وكأنه شبع من منادمة أصحاب محطات الذهاب وفي الإياب أراد أن يكون لأمكنة لا شيء فيها سوى فسحة السماء وضوء النجوم، وفي كلّ استراحة يترجاني أن أحفظ عنه شيئاً وأغلبه كان شعراً يتحدث فيه عن قدر يقترب وعشق سيموت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحين اقتربت بغداد، كان ينظر بدمعةٍ وارتعاشة إلى الأفق الذي رسم له صورة اللحظات الأولى التي ابتدأت فيها طقوس إعدامه صلباً، ثم تمزيقه قطعاً، وحتى يهرب من وحشية ما رسمه الأفق عاذ إلى بهجة الشوق فيه، كأنه مع بغداد يريد خلاصاً فينادم في الشوق روحه ويقول:

يا نسيمَ الريحِ قولي للرَّشا

لم يَزِدني الوِردُ إلّا عَطَشا

روحُه روحي وروحي روحُه

إنْ يشا شئتُ وإنْ شئتُ يشا

لكن نسيم الرّوح لم يشفع للشيخ الذي كان صمته في السفر بلاغة لهدوء الرّجل ومعرفته، ومتى تكلم دوّنت الكلمات لتكون إرثاً مشتركاً بيني وبينه.

لم يمضِ على وصولنا يومان حتى كانت المكيدة في انتظاره، وبدموعٍ من فضةٍ ونحيبٍ كنتُ أنا مع الواقفين، وكان معي كلُّ أصدقائه في صفحة الفيس، وأكثر من صعد نحيبه الأرامل اللائي كان أزواجهن شهداء حرب، أو ضحايا القتل الطائفي، أو المذبوحين بسكاكين داعش، وكن صديقاته على الفيس بوك، يطلبن منه نصائح أن تنشط فيهن أنوثة الشوق دون أن يجنحن إلى الخيانة، فكان يكتب لكلِّ واحدة شيئاً من نصائح الامتلاك، ويخبرهن بأن الغرام مع الأطياف المتخيلة قد يعوض في اللذة ما تستطيع أن تصنعه المجامعة.

بعضهن صدقن، وبعضهن كتبن: هذا هذيان وجنون ومراهقة أيها الصوفي.

لكنه في النهاية شعر بالفرح لأن جبته ومقصلته تعيش وتتعاشق مع كل العصور ، وحتى يبين رضاه ، رمقني بنظرة حب وإشفاق وأبوة ، ثم أغمض عينيه كما أغمضها أول مرة يوم دنت منيته وهو على المقصلة.

Telegram:@mbooks90